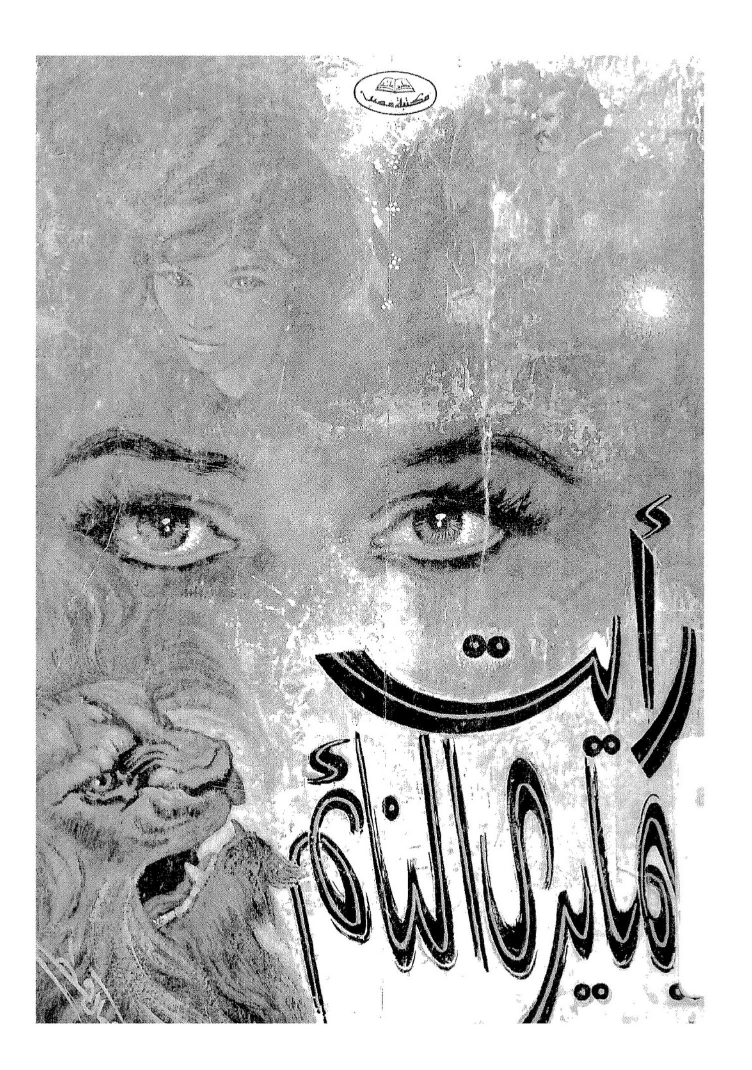


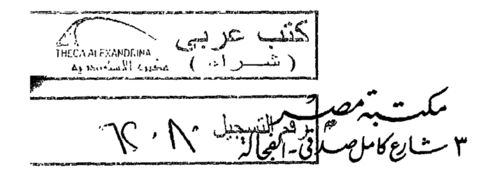
مطبوعات مكتبة مصر

رأيت فيما يرى النائم

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨



دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

أهلُ الهوَى

من فوهة القبو دائمة الظلمة زحف على أربع . زحف فى بطء وتخاذل المريض المتهالك . مد ذراعه إلى جدار بيت ، يتكئ عليه ، ليقف فى عناء مترنحا ، تاركا تأوهاته المتقطعة تتلاحق فى وهن . وفى صباح باكر مشرق بنور الربيع الصافى والحياة تدب متدفقة فى الحوانيت على الجانبين وفوق عربات اليد ونوافذ البيوت المتلاصقة العتيقة والسماء تعلو فوق كل شىء سقفا من الزرقة الرائقة . بدا عاريا تماما . فلفت الأنظار ، خاصة أنظار الأقربين ، نعمة الله الفنجرى تاجرة الخردة ، رياض الدبش الكواء البلدى ، وحلومة الجحش بياع الفولى . تفرست نعمة الله فى منظره من مجلسها فوق الكرسى الخشبى أمام وكالة الخردة وجسمها العملاق ساكن فى جلبابها الرجالى الأزرق وتمتمت :

ـــ يا فتاح يا عليم !

فقال رياض الدبش الكواء وهو يتابعه بوجهه المغولى :

ـــ ووراءه حادثة من حوادث القبو ..

فقال حلومة الجحش بجسمه القصير البدين ووجهه الريان :

ـــ يفعلها الذئاب ونتعب نحن بين س و ج ..

واصلت نعمة الله تفرسها حتى وضح فى وجهها ذلك المزيج الغريب المكون من قوة مخيفة وأنوثة ناضجة مكشوفة ثم قالت بنبرة خبير :

ــ ابن ناس !

تجلى الاهتمام فى عينى الرجلين فتبادلا نظرة معبرة ربطت ما بين الدكانين الواقعين فى مواجهة الوكالة فى الجانب المقابل ثم حدجا القادم من المجهول بنظرة جديدة . إنه شاب فى الحلقة الثالثة ، ناعم البشرة ، مهذب الملامح ، أبعد ما يكون عن الوجوه الكالحة المعهودة ، ثم قال رياض الدبش مداريا انفعاله :

ــ اعتداء وسرقة !

ومضى يتجمع حوله جمهرة من المشاهدين ولكن نعمة الله نهرتهم فتفرقوا سراعا . وجاء مخلوف زينهم من أمام العيادة فى الوسط فتلقى الشاب بين يديه قبل أن يسقط فوق أديم الأرض عاجزا عن التماسك . ونادى عبدون فرجلة الشاب العامل فى الوكالة فأذنت له المرأة بتلبية النداء فتعاونا ــ مخلوف الممرض وعبدون ــ على حمله إلى العيادة . هناك أنامه مخلوف فوق كنبة وغطاه بملاءة منتظرا قدوم الطبيب محسن زيان فى ميعاده من الضحى . إنه رجل كهل فقد فى الحرب ابنا فى مثل سنه ولا ينقصه العطف على أى شاب رغم إيلافه مناظر العناء والمرض . ولما فحصه محسن زيان الطبيب تمتم :

ــ كدمات فى الرأس والجبين نتيجة ضربات شبه قاتلة ، علينا أن نبلغ الشرطة ..

فقال مخلوف زينهم بامتعاض :

ــ إنهم ذئاب القبو ، وستغضب نعمة الله !

تبادلا نظرة تسليم واحتجاج ، ثم تمتم الممرض :

ـــ انهم تحت حماية المرأة ، وهم جنودها السريون عند الحاجة ، ولا قبل لأحد بتحديها ..

فشرع الطبيب فى العلاج وهو يقول :

ـــ ما قيمة حياة تجرى تحت رحمة امرأة كهذه !

و لم ينقطع ذكر الشاب الضحية فى موقع وكالة الخردة . شغل حلومة الجحش بزبائن الفول وراح غلام فى دكان رياض الدبش يسخن المكواة فوق الجمر المتقد على حين انهمك عبدون فرجلة فى ترتيب ما تبعثر من إطارات السيارات القديمة وقطع الغيار المستهلكة والمحركات والمراوح البائـــدة . وسألت نعمة الله عبدون عن حال الشاب الذى شارك فى حمله إلى العيادة فلاح فى وجهه الطويل الشاحب الضيق لاهتمامها به وقال :

ـــ سنسمع قريبا عن موته !

فحولت رأسها المكلل بشعر أسود مفروق مسترسل فى ضفيرة غليظة ملتفة حول صفحة العنق ونافذة فى طوق الجلباب إلى رياض الدبش قائلة :

ـــ سمعت ما يقول ابن التربى عن الأفندى ؟!

فتساءل رياض الدبش مستنكرا :

ـــ الأفندى !؟

ـــ أفندى وحياتك ، أفندى وابن ناس !

فدارى رياض غيظه بابتسامة ميتة وإن جارى عبدون فرجلة فى حنقه أما نعمة الله فتساءلت :

ـــ ولكن ماذا جاء به إلى القبو ؟

فقال رياض منفسا عن صدره :

ــ وراء بنت من حريم الذئاب !

فقالت بحدة بصوتها الجامع بين الأنوثة والذكورة :

ــ مثله لا يجرى وراء خنفساء !

ــ المؤكد أن الذئاب هجموا عليه فضربوه ثم جردوه من كل شىء ..

ولما رجع إلى الظهور فى الحارة تبدى فى صورة أخرى . رفل حافيا فى جلباب قديم أهداه إليه مخلوف زينهم . لم يبق من آثار الحادث إلا ضمادة التفت حول رأسه كالعمامة . وبدلا من أن يذهب إلى حال سبيله هام على وجهه فى الحارة مثل كلب ضال بنظرة خائفة مستطلعة تعكس من الداخل خواء وحيرة ولا تعرف لنفسها هدفا . ووقف أخيرا فى مجال الرائحة الحريفة الدسمة البدائية المنتشرة من الطعمية فى ابتهال ذليل . حامت حوله أعين كثيرة لرجال ونساء سرعان ما هجرته فى لا مبالاة إلا عينين سوداوين ثبتتا عليه فى إصرار وتماد . ولمست عذابه فأمرت حلومة الجحش بأن يهدى إليه رغيفا وطعمية على حسابها . ورغم إشرافها على شحن ثلاث عربات بالخردة ومراقبة عبدون فرجلة والمشترين فقد تابعت التهامه للطعام بسرور وحشى . يكاد الشعر النابت فى عارضيه ولغده أن يلتهم وسامة وجهه كما يلتهم هو الطعام . ترى لم لم يذهب إلى حال سبيله ؟. وماذا يبقيه فى هذه الحال الزرية البائسة ؟. وبدافع من شعور فطرى بالامتنان تربع على الأرض غير بعيد عن موقفها مسندا ظهره إلى جدار الوكالة الذى لاح له كمخزن لنفايات الحديد . وسألته باهتمام :

ـــ اسمك يا جدع ؟

فرفع إليها عينيه العسليتين فى حيرة واضحة و لم ينبس فتساءلت كالمحتجة :

ـــ أهو سر لا يذاع ؟!

فتحولت الحيرة إلى صورة ناطقة للعجز فقال لها رياض الدبش الكواء :

ـــ الصبر ، ألا ترين أنه لم يشف بعد مما به ؟

ـــ لحد نسيان اسمه ؟

ـــ ما زال غير موجود !

فرجعت إلى الشاب قائلة :

ـــ اسمك ؟.. تذكر وأجب ، من أنت ، من أين جئت ؟

فانقلب العجز عذابا وتوجس خيفة فقالت بحدة :

ـــ قل أى شىء ..

فغمغم مقهورا :

ـــ لا أدرى ..

فرددت عينيها بين رياض وحلومة قائلة :

ـــ إنه يهزأ بنا ..

فقال عبدون فرجله وهو لا يكف عن العمل :

ـــ دعينى أطرده بعيدا ..

فصاحت به :

ـــ طردت العافية من بدنك !

ونادت مخلوف زينهم فلما حضر الكهل سألته عن الشاب فقال :

ـــ أنه بلا ذاكرة !

فقالت بضيق :

ـــ لم أسمع عن هذا المرض من قبل ، هل يطول غيابه ؟

فقال الكهل بعطف :

ـــ لا أحد يدرى ، من ناحيتى فإنى أسعى لدى الطيبين للتبرع بما يكفى لنشر صورة له فى الجرائد كى يهتدى أهله إليه ..

فقالت المرأة بغلظة :

ـــ كف عن ذلك ودع الأمر لى !

فرمقها الكهل بيأس ثم قال :

ـــ لك الجزاء الحسن عند الله ..

ومضى نحو العيادة .

وأفسحت المرأة للشاب مجالا للعمل فى الوكالة معلنة بذلك اهتمامها به فأقلع الجميع عن التفكير فيه إيثارا للسلامة . وراح يؤدى ما يطلب منه نظير طعامه وكسائه ، وتجاهله عبدون فرجلة طاويا حقده فى قلبه خوفا من المعلمة ، ولكن الحقد عليه تفشى فى قلوب كثيرة ، فى مقدمتها قلبا رياض الدبش وحلومة الجحش . توقع كلاهما دهرا أن عبدون فرجلة هو المرشح للنعيم حتى زحف الفتى المجهول من القبو كالقدر ، وتجلى رونق وجهه بعد الحلاقة ، وشعر رأسه الممشط بعد إزالة الضمادة كما ارتسمت رشاقة قامته فى البنطلون القصير الكاكى والقميص الرمادى نصف الكم والحذاء الأسود

الموكاسان . أما هويته المفقودة فلم تسترد ، ومضت هوية جديدة بدائية تستكشف الوجود من حوله بدهشة ثابتة ، مستهترة بالتقاليد والحياء والنفاق ، لائذة بغرائزها المتحفزة . وتمنى له الحاقدون الشفاء لعله يختفى فجأة كما ظهر فجأة . أما نعمة الله الفنجرى ، المرأة الرائعة المخيفة فكانت تحلم بمسيرة أخرى . سرتها نظراته النهمة البهيمية ، ولغته الصامتة المكشوفة معا ، وحومانه الحار الجنونى حولها بلا حياء ، حتى قالت لنفسها « لا بد من تهذيبه » . قوتها الراسخة نفسها اهتزت حيال هوج انفعالاته الجامحة ، فخافت أن يصيبها سوء مجهول بين يديه المندفعتين بعنف البراءة العمياء. وقالت لنفسها أيضا « إنى أخيف الرجال ولكن لا أدرى كيف أتعامل مع الزوابع » . بدا غريزة مجسدة تهيم فى غابة من نفايات الحديد . وسمعت عبدون فرجلة يدعوه بالمجنون فنهرته قائلة بنبرة آمرة :

— إنه يدعى عبد الله !

فتساءل عبدون :

— ألا ترين أنه لا يعرف دينا ولا ربا ؟!

فشكمته بضربة فى صدره أوشكت أن تطرحه أرضا ، وسرعان ما عرف بعبد الله ، ولكنها قلقت من حريته المطلقة المنذرة دائما بعواقب مجهولة . إنه لا يتورع عن مد يده إلى أى موضع خصب من جسمها فترجعه جادة حذرة ، رغم ظهورها بمظهر الرجال فى الوكالة طيلة النهار ، فكيف لو لمحها فى منظرها الأنثوى الطاغى فى مسكنها الناعم الخيالى فوق الوكالة ؟!. وخطر لها خاطر حكيم ادخرته لزيارة الشيخ جابر عبد المعين إمام

الزاوية الذى يتلقى منها المعونة له وللزاوية فى أيام محددة . إنها تغطى طغيانها المخيف بنفحات كرم تسكت بها ذوى الألسنة القادرة ، وتمارس فى الدين طقوسا وثنية فلا تأبى — رغم جبروتها — أن تؤنس وحدتها الداخلية بالأحجبة والتعاويذ . جالست الشيخ على أريكة قائمة فى الجانب الأيمن من الوكالة بين تلين من قطع الحديد . وتراءى عبد الله وهو يعاون عبدون فرجلة فى شحن عربة بالإطارات الملساء ، ولمحت المرأة الشيخ وهو ينظر نحوه فقالت :

— أعطيته عملا ورزقا ..

فقال الشيخ وهو فى أعماقه يخافها ولا يحبها :

— الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ..

— ولكنه نسى الدين فيما نسى ..

— أعوذ بالله ..

فقالت بإغراء :

— هذه هى مهمتك يا شيخ جابر ..

— يا لها من مهمة شاقة !..

— لا تكن طماعا . وحظك محفوظ ، المهم أن تعلمه كيف يخاف ، يكفى هذا ..

أدرك لتوه أنها تريده على أن « يعده » لها . لعنها فى سره واستغفر ربه ، وقال لنفسه إنه ليس من حقه أن يسىء بها الظن استنباطا من نية لا يعلمها إلا الله ، وأن مهمته فى ذاتها خير يستحق عليه المثوبة . ودهش كثيرون عندما

رأوا الفتى يساق كل عصر إلى الزاوية لتلقى دروس فى الدين . وقال السذج إنها امرأة شريرة طاغية ما فى ذلك شك ولكنها لا تخلو من جانب خير . أما أمثال رياض الدبش وحلومة الجحش فقد فطنوا إلى اللعبة .

وتساءل حلومة بحرقة :

ــ متى أراها فريسة للزمن ؟!

كثيرون يعيشون بجراح دفينة حفرتها فى قلوبهم أظافر المرأة . حظى من حظى منهم بالعشق حين جادت به وتجرعوا الهجر حين هجرت . وعند ظهور فتى جديد يختال فى أبهة النصر يتعزون عن الأسى بتربص النهاية المحتومة . إنها دائما تتربص هناك لا دافع لها ولا مهرب منها . ولكن متى تخمد نيران تلك الشهوة المتأججة ؟!. وراحت تكافئ الشيخ جابر على دروسه بكرم ثم تراقب الفتى وتنتظر .. ودخل فى مقام من مقامات الحيرة ، وتجلى التساؤل فى عينيه . ولم تشأ أن تسأله حتى يبادرها بالسؤال ، وقد سألها :

ــ أهو صادق فيما يقول ؟.. أعنى الشيخ جابر عبد المعين ؟

فقالت بحرارة :

ــ الصدق أعز ما يملك فى هذه الحياة ..

فاشتدت حيرته ومضى يعرف الحياء ، ويدارى انفعالاته ، ويأسف بعد ارتكاب الخطأ . وحثت هى الشيخ على أن يعفى الفتى من التعمق أو يكلفه بما لا يطيق . إنها تكره العارفين الذين يستشهدون عند كل موقف بما يناسبه من الآيات . إنها ترغب فى امتلاك الشاب وتخاف تمرده ، وعلمتها حياتها أن

القليل من الدين مفيد أما الكثير منه فينذر بالخطورة والغم . وهى مرتاحة إلى نمو رغبته فيها وعذابه الدفين بالتردد والحياء والخوف بعد أن وسع قلبه الرغبة والعبادة فى آن . وتمتم أمام شيخه :

ـــ الله والجنة والنار .

فقال له الشيخ جابر :

ـــ تدبر ذلك بعقل ناضج تجاوز الطفولة والصبا ..

فتساءل فى حيرة :

ـــ والرغبات الجامحة من خلقها ؟

فقال الرجل بضيق خفى :

ـــ هذا هو امتحان الإنسان ..

وعلم فيما علم بما ضاع من ماضيه . أى فرد يجهل مستقبله أما أنا فأجهل ماضيى ومستقبلى معا . ماض ليس بالقصير وحفل ولا شك بأشياء وأشياء. ولم يفطن إلى جو الحقد الذى يلفحه إلا قليلا ، فعدا عبدون فرجلة لم يشعر بعداوة مجسدة ، ولم يفطن كذلك إلى أن نعمة الله ترصد اللحظة المناسبة لانتزاعه نهائيا من يدى الشيخ عبد المعين . ولكن قلبا واحد ظل يخفق بالعطف عليه هو قلب المرض مخلوف زينهم . تسلل مساء إلى الزاوية فصلى المغرب ثم انتحى بالشاب ناحية عقب انتهاء الدرس . لمس التجهم المشوب بالقلق يغشى وجه الشيخ جابر فغضب وقال له :

ـــ اخش ربك وحده !

فتساءل الشيخ بحدة :

ـــ وأنت ألا تخشى المرأة أيضا ؟

ـــ يمكن أن تستمد من العمامة قوة وليس لى ذلك .

فقال الشيخ :

ـــ لولا المرأة ما كانت الزواية !

فقال له بأسى :

ـــ إنك تعلم أنها ترعاها من أجل الشيطان ..

وأقبل على الفتى معرضا عن الشيخ وقال :

ـــ سوف تسترد ماضيك يوما ما ، مظهرك يدل على أنك منحدر من أصل طيب ، ولعلك كنت ماضيا فى مهمة نافعة ، لست من حينا فماذا جاء بك إليه ؟ ، والعمل المتاح لك اليوم لا يناسبك فماذا كان عملك ؟..

فتمتم عبد الله :

ـــ لا حيلة لى الآن ..

ـــ هذا واضح، المهم ألا تتورط فى مأزق يتعذر الخروج منه إذا انقشعت الظلمات ..

ـــ نعمة الله هيأت لى عملا ومأوى ..

ـــ هى فى الحقيقة نقمة لا نعمة !

ـــ لولاها ..

فقاطعه :

ـــ إنها صاحبة خطة قديمة متجددة ، سوف تهبك نفسها فتظن نفسك سيد العالمين ..

فتورد وجه الفتى وخانه السرور فأضاء به وجهه فقال الرجل بحزن :

ــ لست الأول ولن تكون الأخير ، وسوف تلفظك حتما وبلا رحمة فتتلاشى ساعات السعادة الزائفة فى حمأة الهجر الدائم وتنضم إلى ركب التعساء الكثيرين ..

قلقت فى عينيه العسليتين نظرة حائرة ولكن موجة الفرحة القريبة الراقصة اكتسحت نذر المصير المخيف المجهول ، فقال الرجل وهو يصارع الهزيمة :

ــ إنها قوية بلا حدود ، حتى ذئاب القبو الذين اعتدوا عليك يخضعون لها ، وعند الضرورة تزهق روح من يعاندها ، هى السحر وكفى ..

فتساءل الشاب احتراما لعطف الرجل :

ــ ماذا تريد منى ؟؟

ــ أن تهجر الحارة فى الحال ..

ــ إلى أين ؟

ــ ستجد لك رزقا فى مكان ما حتى تستعيد ذاتك ..

صمت دون حماس فتساءل الرجل بقلق :

ــ أوقعت فى قبضة قدرك ؟

فأجابه بصمت ناطق واستخفته الفتنة ، وشعر مخلوف زينهم أنه يجرى بعيدا عنه ، وأنه ينطلق نحو تجربته المهلكة بحماس دافق . تنهد الرجل ، قام وهو يتبادل مع الشيخ نظرة حنق ثم مضى وهو يقول للشاب :

ــ الله معك !

وهل الصيف بشخصيته الواضحة المتحدية ، وتحت شمسه المحرقة سرى العنف فى الخناجر واحتدم الخصام لأتفه الأسباب . واتهم عبدون فرجلة الفتى بسرقة قروش افتقدها فانقض عليه يصارعه لولا ظهور نعمة الله فى اللحظة المناسبة وإنذارها عبدون بالطرد إذا عاود العدوان . وقررت المرأة كف الفتى عن دروسه الدينية اكتفاء بما حصل من قشور فكثر الفراغ فى حياته كما كثرت الهموم . بات يخاف الله ، ويخاف عبدون ، ويخاف تحذيرات عم مخلوف زينهم ، ويتساءل عن ماضيه الطيب والمهمة التى جاءت به إلى هذه الحارة العصبية ، ويتساءل متى يبدأ العشق قصته ، وماذا يمكن أن يقال عن المصير المحتوم ، وألا يكون خسرانه أكبر إن تجنب التجربة المغرية ليتفادى من المصير المحزن ؟!. خاض فترة قلق ، وتطلع إلى معلمته بنفاد صبر ، وجزع لانهماكها فى العمل وما يبدو من تجاهلها لحاله . غير أنها كانت قريبة منه أكثر مما يتصور ، ومتغلغلة فى تلافيف ذاته بقوة امرأة آسرة وأسيرة فى آن . إنها رغم قوتها المعترف بها ، وقدرتها الإدارية ، وسطوتها الأسطورية ، فريسة لخيالها المنطلق وعواطفها الجامحة . إنها تعشق حتى الموت ، وعشقها داء لا دواء له ، وعندما يرشح لها قلبها فتى من الفتيان فتهيم به وتجن ، ولكن الخبرة ترسم لها وسيلة ظاهرها القوة واللامبالاة . تؤكد لديها أنها تعانى حال عشق جنونى لا نزوة طارئة فتأهبت للتجربة . لاذت بخلوتها الصغيرة بمسكنها الوثير المفروشة أركانه بالشلت الدسمة المكسوة بالأغطية الخضراء ، يتوسطها وعاء نحاسى مجوف ملىء نصفه بالبخور ونصفه الآخر بقصاصات منقوشة بالتعاويذ والأدعية والنداءات الخفية .

(رأيت فيما يرى النائم)

ذرت قبضة من البخور فى مجمرة ثم لهجت بابتهالات تستحضر بها ساحرها القديم الذى غادر الدنيا على عهد شبابها الأول . وشملت الظلمة المكان إلا لآلىء تتألق فى الجمرات وانتشرت رائحة البخور العميقة مفعمة بالابتهال والنداء . وحل بالظلمة وجود جديد ، ثمرة للرغبة الحارة المستميتة ، كحضور ذى وزن ملأ فراغ الخلوة بثقله غير المرئى ، وسرعان ما انقشعت الوحدة وتلاشى الألم . تشجعت وهمست دون أن تجفف عرقها :

ـــ أهلا بك يا برجوان ..

فنفذ إلى أعماقها صوته المغلف بالموت :

ـــ القبو يطيعك ، الرجال يخافونك ، شبابك حى ..

فهمست باشفاق :

ـــ حل بى الجنون من جديد .

ـــ صاحبك أيضا مجنون .

ـــ قد يرجع إلى ذاته قبل أن أبرأ من عشقه !

ـــ إذا رجع نسى الماضى ولا حيلة فى ذلك .

فقالت بتوسل :

ـــ سحرك قادر على كل شىء .

فقال بضجر :

ـــ أولى بك أن تحذرى مخلوف زينهم .

فهمست بقلق :

ـــ أعلم نواياه ولكنى أخاف أن أؤدبه بنفسى فأرعب الفتى ..

فتنهد الظلام فى استجابة ، وتتلاشى الحضور فى الحال فعادت إلى وحدتها ولكن بقلب مترع بالثقة . وأقعد المرض الممرض مخلوف زينهم عن عمله فى عيادة الطبيب محسن زيان . وعرف فى الحارة أنه أصيب بروماتزم مفصلى شديد غير أن الشيخ جابر عبد المعين قال لزوجته :

ــ إنه من عمل نعمة الله !

فقالت المرأة مذعورة :

ــ ليتك لم تش به .

فغضب الشيخ ولطمها على وجهها لطمة شديدة .

وأراد عبد الله أن يعود الرجل الذى كان أول من كساه بعد عرى ولكن نعمة الله قالت له :

ــ لا أحب هذا ..

ثم خففت من وقع أمرها فقالت له :

ــ مسكنى فى حاجة إلى الخدمة ، وقد اخترتك لذلك .

ونسى صاحبه وتساءل فى سرور طاغ « ترى هل انتهى العذاب ؟!» وثمة باب فى الوكالة يفتح على سلم للمسكن تسلل منه ليلا . استقبلته رائحة البخور وضوء مصباح كهربائى مثبت من أعلى الجدار . صعد فى الدرج ووجدانه يسبقه يطمس بحمياه معالم المكان . فى نهاية دهليز رأى بابا مواربا يشع منه نور ، مضى إليه وتنحنح . جاءه صوتها الليلى الرخيم داعيا فدخل . لم ير من الحجرة سواها وهى مستوية على كنبة مسندها مطعم بالصدف فى جلباب حريرى أبيض يخفى قسمات الجسد ولكنه ينبئ عن عملقته بطريقة إنسيابية تثير الخيال . وليس فى الوجه المتسلطن أثر من زواق ولكنه ينضج

بأنوثة فوارة بعد أن خلعت قناع الذكورة الصارم الذى تتعامل به فى الوكالة والحارة . والشعر الأسود ذو لون طبيعى لا يشى بأى تكلف كيماوى ، دافىء بشباب راسخ . تركته واقفا فى جلبابه الفضفاض ، لم تخفف من ارتباكه بكلمة ، كأنما لتمتحن أثرها فيه ، ولترى لأى تكون الغلبة : الخوف أم الرغبة ؟. ومن شدة حرجه انتزع عينيه منها ليلقى نظرة عما حوله ولكنه لم ير سوى النظافة وكأنها تقوم بذاتها . وتنفس رائحة طيبة . قال :

ــ لعله وقت مناسب لتنظيف المسكن ولكنه ليس فى حاجة إلى تنظيف ..

فصبت من إبريق مفضض فى قدحين فوق خوان مطعم بالأصداف سائلا فاحت منه رائحة القرفة الممزوجة بالزنجبيل ، وعادت تنظر نحوه . وبسريان الخمر غير المنظورة فى دمه التصق بصره بها فى جرأة السكران . وتمادى فى انفعاله حتى اكتسح العواقب واستسلم لتيار قوى دفع به نحوها كالقذيفة . وكالقذيفة راح يتنقل بين أبعادها وهى تتلقفه بحنان حار ، ورضى آسر ، واستجابة مستكينة وحماسية معا . وما لبث أن توج فوق عرش النشوة والسيادة ، وامتلأ واقعه بعذوبة الأحلام . وتمنى لو استمر ذلك دون توقف ، لو كان الحب ذا سياسة أخرى ، لو أن السعادة لا يجرفها تيار الذكريات . لكنه وجد نفسه راقدا فى حضن الفتور الجليل يرى الأشياء لأول مرة . إنها حجرة أنيقة حقا . متوسطة الحجم ، مزينة الجدران بسجاد صغير وبسملة مذهبة ، تتوسط أضلعها كنبات وثيرة ذوات أغطية مختلفة الألوان ومساند مطعمة بالأصداف مموهة بالأمثال ، مغطاة أرضها بسجادة

حمراء فى وسطها مجمرة كبيرة تحت مصباح كهربائى فى قنديل . وسرعان ما أنتقل من الفتور إلى القلق حتى قالت له :

ــ نظرة عينيك لا تعترف بجميل .

فلثم خدها وهو يقول ببراءة :

ــ أخاف النار !

فابتسمت قائلة بحنان :

ــ عندما تهب المرأة نفسها فالعلاقة شرعية مباركة !

فمال إلى تصديقها بكل قواه ورآها جديرة بالانقياد ، أما هى فواصلت :

ــ منذ الساعة فأنت شريكى فى البيت ووكيلى فى الوكالة !

وتبدى فى صورة جديدة ، صورة المعلم الشاب بجلبابه الأبيض ولاثته المزركشة ، وزهوه المتورد . وعمل عبدون فرجلة فى ظله ، مكرها على طاعة مرة كالسم ، منطويا عن مقت وحسد كالنار . وشاركه فى عواطفه الدفينة رياض الدبش الكواء وحلومة الجحش الفوال وآخرون . ولكن عبد الله تجاهل فى نشواته العواطف الدفينة . وأقبلت السعادة كالشمس تنتشر أشعتها فى جميع الأرجاء فجذبت مسمعيه ضحكات السكارى والمساطيل وأطربتها أنغام المزامير الراقصة وأغانى الراديو وتصادم عما عدا ذلك حتى آمن بأن مهجره الجديد ما هو إلا موطن للسرور والرحمة فشكر الحظ الذى ساقه من المجهول إلى القبو واستخلصه من ماض لا يجوز أن يأسف عليه . وانغمس فى الحب فى الليالى المذابة فى أقداح القرفة والزنجبيل الحاوية لنفثات

السحر ، الداعية لعوالم الخيال والذهول . وتكشفت نعمة الله عن معجزة لا نهاية لإبداعها وفنونها وأنغامها ، ولا نهاية لقدرتها الخارقة فى إشعال الحيوية وتفجير الطاقة ، وخلق المسرات ، وإشباع الكرامـة ، وإرضاء الغرور . انغمس فى الحب حتى قمة رأسه ، وتعلق بها حتى الجنون ، وألهمته سعادته الإحساس بالدوام والخلود، فاقتنع بكل قواه بصدقها وإخلاصها ووفائها ، وتطايرت أصداء ما قيل له عنها فأنسيه وكأنه لم يكن . ونسى تماما القلق والتساؤل والحيرة والإساءات العابرة فبدت جميعها كالأشباح الوهمية التى تفنى فى ضوء الشمس الساطع . وقالت له ليلة فى دعابة :

ــ أراك لا تتكلم إلا نادرا ..

فتحير قليلا ثم قال :

ــ السعيد لا يجد ما يقوله إلا نادرا ..

فابتسمت قائلة :

ــ كتب علينا ألا نسمع إلا ما يسوء !

فقال ضاحكا :

ــ إنى أثرثر ولكن بغير لسان !

ــ ألا توجد فى قلبك رغبة ؟

فقال بحماس :

ــ أن يدوم الحال ..

فقالت بنبرة صدق :

ــ هو ما أوده أيضا ..

ــ إذن فلن يهدد دوامه شيء ..

وصمتت قليلا وهى تتفحصه ثم سألته :

ــ ألم بعد يهمك أن تعرف المجهول من حياتك ؟

فهتف ضاحكا :

ــ أبدا ، الحق أنى أخشاه على حاضرى ..

ــ وأنا أيضا مثلك .

وبعفوية تبادلا قبلة ثم قال :

ــ ألا توجد وسيله لحماية حبنا إذا انكشف المجهول ؟

ــ هذا ما لا أدريه ..

فتساءل بحرارة :

ــ ألا ترينه أقوى من أن يؤثر فيه شيء ؟

فقالت بحماس :

ــ هو كذلك ..

فاستوى حصنا منيعا من اليقين والطمأنينة خليقا بأن يصمد لأجن العواطف والترهات . وثمل بسعادته فلم ينتبه لجريان الزمن . فى تلك الغفلة العذبة تلاحقت أيام الصيف لاهثة وتسلل الخريف بخطاه الخفيفة ، ينفث فى الجو أنفاسه الرقيقة ويخضب السماء بفرشاته البيضاء ويغزو القلوب بأنغامه الشجية . ومضت نيران العواطف المتأججة تخبو قليلا قليلا ، ويحل محلها حب هادىء ، موسوم بالاعتدال ، متحرر من جنون الإفراط ، مالك لوقت ينفقه فى التعامل مع سائر أركان الحياة . وزحف ذلك التطور على الطرفين

معا ، الفتى والمرأة ، فخلطا أحاديث الهيام بهموم الوكالة والحارة ، واستأثر الجد بالحوار حينا فخلا من أية مداعبة ، فانبثق التلاقى الحميم ثمرة للرغبة مرة ، وثمرة للعادة أو دفعا للشكوك مرات ، حتى تساءل عبد الله ما هذا الذى يحدث ؟!. بدا كل شيء بالقياس إليه — بخلاف المرأة — كأنما يحدث هكذا لأول مرة فى تاريخ البشر . واسترق النظرات إلى المرأة الهادئة فساورته الشكوك وازدحم أفقه بالفكر . ولمح يوما عم مخلوف زينهم وهو ماض نحو العيادة فاستعاد تاريخه معه فى لحظة . أدرك بكل سرور أن الرجل برىء من مرضه فاندفع نحوه بتلقائية ، ولكن الكهل صدمه بنظرة باردة رافضة وابتعد عنه فى تجاهل تام . توقف متعثرا فى ارتباكه ، متذكرا ذنبه فى إهماله حين مرضه ، وتراجع إلى موقفه وهو يتلقى من أعين كثيرة نظرات لاذعة . شعر بأنه خسر صديقه الوحيد فى الحارة . وانتبهت حواسه لما حوله من جديد فقرأ الحسد والشماتة فى أعين عبدون ورياض وحلومة !. الجو مشحون بالكراهية والحسد . وتذكر تحذيرات زينهم فأوشك أن يفقد الثقة ، وبدافع من تحد راح يقطع الحارة ذهابا وإيابا ويختلف إلى المقهى بعض الوقت . وتتلقى أذناه كلمة من هنا وكلمة من هنا . لم يتصور أن تكون امرأته الشغل الشاغل للناس بهذه القوة . هل عشقتهم ونبذتهم جميعا ؟!. إنهم يخافونها بقدر ما يمقتونها وكأنها لا حيلة لهم قبالتها . وهى فى نظرهم قوية ، بل أقوى من جملة رجال أشداء ، ولكن لا أهمية لقوتها إذا قيست بتمرسها بالسحر وتعاملها مع العفاريت ، أو بتسلطها على ذئاب القبو الذين لا يتورعون عن القتل خدمة لها . ولا يكاد ينخدع أحد برعايتها للزاوية وشيخها أو برها

ببعض الفقراء ، ويرون فى ذلك ستارا كاذبا تسدله على آثامها ورغبتها الشرهة فى التحكم فى الناس والأرزاق . وإذن فجميع مظاهر السرور فى الحارة ما هى إلا قشور أما الحقيقة فهى أنها تعيش فى جو يموج بالخوف والحقد ، تهدده فى كل حين الذئاب والعفاريت ، وتنحسر فى الوقت ذاته عن ساعات لذة عابرة جادت بها المرأة المحترفة فى غفلة من الزمن . أهذه هى نعمة الله حقا أم أنه خيال يشعله الحسد والحقد ؟!. ألم يجد حبها صادقا وعطفها شاملا وإخلاصها راسخا ؟!. وحتى الهدوء الذى آل إليه ألم يقع له نفس الشيء ؟!. هل يمكن أن يتهم هو بسبب من الاعتدال بعد الجنون بفتور الحب أو انقلاب العاطفة ؟!. ولكن من ناحية أخرى لمَ يتقرر لهُ مصير غير مصير الآخرين ؟!، لمَ ينجو من الكأس التى تجرعها الجميع حتى الثمالة ؟!. وتلتقى عيناه بعينيها وهى منهمكة فى العمل فتبتسم إليه ابتسامة حلوة تمحق وساوسه فيشرق الأمل بنفسه من جديد . وتشجع فى ليل ذلك اليوم الخريفى وقال لها وهما يرشفان من قدحى القرفة بالزنجبيل ويهيمان فى ملكوت الأوهام الحانية :

— أتدرين ما يقال عنك فى الحارة يا نعمة الله ؟

فداعبت وجنتيه بأناملها وقالت :

— لست غافلة عن شيء يهمنى أبدا .

فقال بامتعاض :

— ما أظلمهم يا نعمة الله ..!

فتساءلت فى دعابة :

ـــ أترانى ملاكا ؟

ـــ إنك عظيمة وطيبة ..

فقالت بهدوء :

ـــ ولكى أكون عظيمة وطيبة يجب أن أكون أحيانا حازمة وقاسية ..

فتساءل وهو يكتم وساوسه :

ـــ لك تاريخ عجيب ولا شك ؟

ـــ طبعا ، إنى سليلة فتوات كما كان أول زوج لى فتوة فنشأت قوية ولكنى كنت يوما وما زلت ذكية فسلمت بانتهاء عصر الفتونة ، غير أنه لا غنى عن القوة والذكاء .

ـــ أحقا تسيطرين على الذئاب ؟

ـــ نعم ، إن لم أسيطر عليهم سيطر عليهم الآخرون وحلت الفوضى ..

فسأل بعد تردد :

ـــ وهل تجيدين السحر أيضا ؟

ففكرت قليلا ثم قالت :

ـــ هذا هو الاسم الذى يطلقه العجزة على الذكاء ..

فقال بقلق :

ـــ التعامل مع العفاريت أمر مخيف ..

فتساءلت ساخرة :

ـــ هل عثرت على عفريت فى هذا البيت الجميل ؟!

فتنفس بارتياح وتساءل :

— لم لا تعيشين مثل الناس العاديين ؟

فقالت بكبرياء :

— لأننى لست عادية !

وساد الصمت حتى تجلت للسمع أصوات رقيقة للخريف فى الخارج ، وجعلت تلحظه باهتمام فلما لاذ بالصمت قالت مستلهمة نظراتها النافذة فى الأعماق :

— قل ما عندك ، ما زال عندك ما يقال ..

فضحك ضحكة قصيرة وتساءل :

— أحقا تزوجت من كثيرين ؟

فقالت باستهانة :

— نعم .

— وهجرتهم أو أجبرتهم على الهجران ؟!

— نعم .

فتساءل وقلبه يخفق :

— ولكن لماذا ؟

فقالت ببرود :

— لم أجد بينهم صالحا ..

وراقبت وجومه قليلا ثم همست فى أذنه :

— أنت أول من أجد !

فرنا إليها غير مصدق فقرأ الصدق فى عينيها الجميلتين المتسلطتين وهمس

فى أذنها :

ــ لا حياة لى بدونك يا نعمة الله ..

ــ ولا حياة لى بدونك ..

فقال بحماس وحرارة :

ــ أخاف عليك حقدهم المنتشر ..

فقالت ساخرة :

ــ لا خوف من حقد مصدره العجز ..

ــ كراهيتهم لى أيضا تلفحنى فى كل خطوة .

فقالت بوضوح :

ــ احذر أن تظهر خوفا أو قلقا .

مضى يسترد الثقة والسكينة بين يديها ، ولكن يتبدد أمنه فى الوكالة والحارة . استعاد حديثها كثيرا فلم يعرف الاستقرار قلبه . امرأة تثير عواطف شتى متناقضة . تلهم الحب والطمأنينة والخوف والشك . يراها فى الوكالة شخصا آخر . يرى رجلا قويا ومثالا للحزم والعنف أيضا . لا تقارب بينه وبين الأنثى التى تبهر الليالى فى المسكن الناعم . وخطر له أن يسأل نفسه « ترى هل وجد مثل هذه الحيرة فى حياته المجهولة ؟! ». وكان يتذكر حياته الأخرى لأول مرة منذ أمد غير قصير . أكان أسعد حالا أم أتعس ؟!. أكان أرفع منزلة أم أدنى ؟. أكان يحترق بغضب الآخرين أم نعم بسلام دائم ؟!. من أى جهة جاء وأى جهة قصد ؟!. لكنه عبر ذلك بسرعة وكاد ينسى كل شىء لولا أن سألته فى مجلس الليل :

ـــ فيم تفكر يا عبد الله ؟!

فأجاب بسرعة :

ـــ لا شيء ..

ـــ كنت فى النهار كالمسافر .

وذابت إرادته تحت نظرة عينيها فاعترف لها بتساؤلاته . فنظرت إلى السقف المنقوش بزخارف متداخلة لا يعرف لها أول ولا آخر ، وقالت :

ـــ إنها أول إهانة أتلقاها منك ..

فهتف بجزع :

ـــ خواطر فارغة ولكن لى عذر .

ـــ لا عذر لك ..

ـــ تقبلى أسفى ..

فتساءلت فى عتاب :

ـــ ماذا تريد أكثر مما أعطيتك ؟

ـــ لا شيء .

ـــ ولكنك تحوم حول تساؤلات عقيمة ، وهذا هو الحمق ..

ـــ نطقت بالحق .

ـــ لا تكن منافقا كالآخرين .

ـــ بل نطقت بالحق وما أطمح إلا إلى دوام ما أنا فيه ..

فقالت بحدة :

ـــ ستعرف مجهول حياتك ذات يوم وسوف تندم ..

ــ شعر بأنها امرأة محبة وغيور ، ونعم ليلتها بسعادة صافية ، وعندما ساد الظلام خطر بباله سؤال « ترى هل الندم هو الجزاء الأوحد لمعرفة المجهول من حياته ؟! » . ولكنه رغم الظلام ، وهبوط النوم ، خاف أن تفضحه نظرتها النافذة . وانغمس فى حياته بإصرار ، وركز على سماع الأغانى والنكات ، وتجنب ما استطاع نثار شواظ الغضب الهادر وتمنى أن تمضى حياته هكذا أبدا . على أن الحياة مضت فى طريقها على أى حال ، وانتهى الخريف كما انتهى الصيف من قبل وإن لم ينته فى غفلة كاملة . ولا بنفس السرعة . ولكن الليل طال وتلفعت بواكير الصباح بالظلمة وزفرت الأبدان قشعريرة . وتأخر شروق الشمس حتى انقشاع الغمام وجادت السماء بمطرة واحدة . غير ملابسه الداخلية والخارجية وتواصل التغيير فشمل أشياء كثيرة . تسلل التغيير فى خطوات غير مسموعة ولولا حساسيته ومخاوفة الدفينة لأفلت منه تماما . وزاد من قلقه أن التغيير ينبثق منه ، من أعماقه ، ففتر حماسة لمجلس الليل الذى لا يعد بجديد وغدا الاستسلام للنوم ألذ من السهر ، وتمنى لو كان له أصحاب يسامرهم فى المقهى حتى منتصف الليل . وانطفأت بروق كثيرة تحت عباءة العادة الثقيلة ، فاستيقظ الفكر وخبت شعلة العواطف والغرائز ، وخاف أن يقف كالمتهم بين يديها ، أن يتلقى من عينيها السوداوين نظرة ساخرة ولكنه وجدها تسايره بارتياح وعفوية . وتشغل عن اللهو والزينة بالتفكير فى العمل أو باستقبال بعض العملاء ثم يأويان إلى النوم آخر الليل مثقلين بالتعب . توقع منها مطاردة محرجة فوجدها تغوص فى العقل والهدوء واللامبالاة . وفجر ذلك قلقه و لم يطمئنه ، ورأى فيه نذير شر .

وصمم على افتعال العاطفة وبعث الرغبة المرهقة مهما كلفه ذلك من جهد جنونى . و لم يحظ ذلك من الطرف الآخر بعطف فأعرضت عنه مرات فى استياء لم تحاول إخفاءه ، حتى قالت له مرة :

ـــ دع الأمور تجرى على سجيتها ..

عند ذلك أضناه الحياء والألم . وندم على ما فرط منه من اندفاع جنونى أحمق . كأنما كانت كل ليلة هى ليلة الوداع . وبات ذلك الفتور شغله الشاغل فنسى كل مأساة إلا مأساة الحب . هل يفقد هذه القوة العجيبة كما فقد الذاكرة ؟. وهل يجرى عليه ما جرى على أزواج نعمة الله السابقين ؟!. وجعل يقوم بعمله فى الوكالة بعقل غائب ووجه نضب فيه معين السرور والمرح . ولحظ أن عبدون فرجلة يتابعه بشماتة ، وأن نظرات رياض الدبش وحلومة الجحش تبرق بأضواء فرح شرير . ما أكثر الذين ينتظرون على لهف نهايته . ولكنه سيخيب الظنون ويبدع فى مجرى الحوادث ما لم يبدعه أحد ممن سبقه . سيظل الفتى المرموق فى هذه الحارة التى يحترف أهلها الشكوى والعويل وتردد أغانيها أنات الهجر والحرمان . وشعر بحاجته إلى صديق يشاوره . ولكن لا صديق له فمن يشاور ؟! وخطر له الطبيب محسن زيان فذهب إلى العيادة فكان أول زائر فى الصباح . قابله مخلوف زينهم كغريب فقال له عبد الله :

ـــ السماح من شيم الكرام يا عم مخلوف .

فقال له الكهل باستياء :

ـــ إنى أعلم متى ينسى أمثالك ومتى يندمون .

وغادره إلى حجرة الطبيب ثم عاد ليدعوه للدخول فى جفاء . نظر إليه الطبيب متفحصا ملابسه البلدية الصوفية الفاخرة وابتسم ، ثم سأله :

ــ جئت من أجل ذاكرتك ؟

فأجابه بصوت مهموس عما جاء من أجله . وطرح الرجل عليه أسئلة بخصوص عمره وعمله والأسلوب الذى اتبعه فى حياته « الزوجية » . ثم قال له :

ــ إنه الإفراط البعيد عن العقل .. والقلق النفسى .. تلزمك راحة جسدية ونفسية ..

فهمس عبد الله :

ــ والدواء ؟

هز رأسه نفيا وقال :

ــ سيضرك أكثر مما يفيدك ..

رجع إلى الوكالة مغتما وهو يلعن الطبيب. وازدادت حاله سواء فحصر فى ركن مظلم وغمغم لنفسه « كأنه مصير لا مفر منه » . وإذا بعبدون فرجلة يسأله :

ــ سلامتك . لماذا ذهبت إلى العيادة ؟

فقال له بحنق :

ــ انتبه لعملك ، متى كانت صحتى تهمك ؟!

فقال الشاب متظاهرا بالجدية :

ــ سمعت الشيخ كافور يقول يوما « لا يملك إنسان ما يستحق أن يحسد

عليه حقا »!.

فصاح به :

ــ أنت كاذب و لم يخل قلبك من الحسد ساعة واحدة ..

وخيل إليه أن حكاية الاستشارة الطبية تلوكها ألسنة لا حصر لها فازداد انحصارا فى الغم واليأس وغمغم لنفسه مرة أخرى « كأنه مصير لا مفر منه » وفى هذه الدوامة المظلمة المنذرة بسوء المصير انساق بقوة إلى التفكير فى المجهول من حياته . فقد يجد فيه المأوى إذا افتقد مأواه ، وقد يجد فيه العزاء إذا عز العزاء . هذه الحياة المتاحة تتسرب من يديه كالماء ، لم تعد حقيقة ثابتة ولكنها حلم تحدق به يقظة الصباح القريب . وسوف يجد نفسه وحيدا منبوذا ضائعا إن لم يهتد إلى حقيقته الغائبة . إنه صاحب حياة ماضية ، تمثلت فى أهل وعلاقات وأناس ، تجسدت فى حى من الأحياء القريبة أو البعيدة ، وثمة عمل ارتزق منه ، وربما زوجة وأبناء ، وثمة هدف دعاه إلى المجىء إلى هذا الحى ، وحدث ما دفع به إلى القبو حيث وقع له ما وقع ففقد كل شىء . ترى ما السبيل إلى الكشف عن تلك الحقائق الغارقة فى الظلام ؟!. وقد سمع ما يقال عن نشر صور المفقودين فى الصحف فلمَ لم يجد أحد فى البحث عنه ؟. وهل ينشر هو صورته باعتباره فاقد الذاكرة ؟!. تردد طويلا أمام هذه الفكرة لخطورة عواقبها . أجل قد دار الحديث يوما فى المقهى عن هارب تبحث عنه الدولة لتشنقه ، كما سمع آخر يقرأ إعلانا لأسرة موجها لابن هارب تقول له « يا فلان .. عد إلى أهلك ، جميع طلباتك مجابة ! » ، فإلى أى الفرعين ينتمى ؟، وهل إذا نشر صورته انقضت عليه الشرطة أو تحققت

أمنياته جميعا ؟، ماذايكمن وراء الباب المغلق ؟!. تراجع عن الفكرة وهو يزداد مرارة ، وشعر — كما لم يشعر من قبل — بحاجته إلى الصديق أو فى الأقل المشير . لم يفكر فى نعمة الله التى مضت توغل فى الغربة والبعد حتى كاد ينكر المسكن تواجدهما معا تحت سقفه . ومضى إلى العيادة ، ولما رآه الطبيب محسن زيان تساءل باسما :

— من أجل الحب أيضا ؟

فأجاب بضيق وهو يشير إلى رأسه :

— من أجل الذاكرة ..

ففكرة الرجل قليلا ثم قال :

— لو كنت تعيش فى بيتك القديمة بين أهلك لساعدك ذلك على الشفاء ، ولوجدت فى مَعلم ما أو شخص ما يوقظك من نومتك الطويلة ، ولكنك ما رست حياة تشجع على النسيان وتخاف اليقظة ..

فسأله يائسا :

— والعمل ؟

— لعل إصابتك عضوية ، ولعلها أكثر مما قدرت ، وفى هذه الحال يستحسن أنتستشير إخصائيا ، وربما أحالك إلى طبيب نفسى ..

فقال بضيق :

— إنه مشوار طويل .

— ويحتاج إلى إرادتك فى جميع الأحوال ، وواضح أن صحتك ليست على ما يرام ، وسأكتب لك بعض المقويات كخطوة أولى ..

ولبث فى العيادة حتى غادرها الطبيب للغداء فوقف قبالة مخلوف زينهم قائلا :

— إنى مصمم على نيل عفوك ..

فقال الرجل ممتعضا :

— لا ثقة لى فيك ولا فى غيرك ..

— لا أحد يستحق الثقة كما قلت ولكن كثيرين يستحقون العطف ..

— أنكرتنى والشمس تشرق ورجعت إلى وهى تؤذن بالغروب ..

— اغفر لى ذنبى ومد إلى يدك ..

فهبطت حدته درجات وهو يسأله :

— ماذا تريد ؟

ذهبا معا إلى المقهى ، فأرسلا الصبى لإحضار غداء من شوربة العدس ولحمة الراس ، وجعل يحكى له ما استجد فى حياته من شقاء ، وختم حكايته بنصيحة الطبيب محسن زيان . وكان يحدجه طيلة الوقت بنظرة كأنما تقول له « أرأيت عاقبة إهمالك لنصيحتى » . ثم قال :

— نهاية ابنى الشهيد معقولة أكثر من نهاية أمثالك ولكن لا فائدة من الرأى أو المشورة ، الجميع مصممون على تكرار الأخطاء حتى ولو لم يداخلهم أدنى شك فى النهاية يستوى فى ذلك من فقد ذاكرته ومن لم يفقدها ، والآن خبرنى علام عولت ؟!

فقال عبد الله بضيق :

— طريق الطب طويل وباهظ التكاليف ..

ــ وغير مجد فى هذه الحال بالذات ..

ــ والعمل يا عم مخلوف ؟.. هل أزور الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية ؟!

فقال بغضب :

ــ لا هو إمام ولا الزاوية زاوية ، إنه رجل جاهل عينته نعمة الله لخداع السذج ، وهى التى شيدت الزاوية من مال حرام للخداع أيضا ، إنها لعبة مكشوفة ولن تجد عنده رأيا ولا شفاء عدا بعض السور الصغيرة التى كان يرتلها فى المقابر كلما جاء موسم دون أن يفقه لها معنى ..

فقال عبد الله بقلق :

ــ ولكنى أخشى عاقبة الإعلان عن نفسى فى الصحف ..

ــ معك حق ، فقد تكون أخطر مما تصورنا ، ولكن عندنا الشيخ كافور فهو من رجال الله ..

ــ أهو يستعين بالسحر والعفاريت ؟

فقال مخلوف زينهم بازدراء :

ــ إنى أتحدث عن كافور لا عن نعمة الله الفنجرى .

وكان كافور يقيم فى بدروم البيت الذى يقيم فيه رياض الدبش الكواء البلدى ، فبدا جو حجرته فى لون الغروب أو الفجر ، وعبق بشذا بخور طيب . وجلس الرجل فى الصدر على أريكة قصيرة الأرجل على حين غطى سطح الحجرة بحصيرة مطموسة اللون . تربع مخلوف وعبد الله على الحصيرة أمام الأريكة بلا استئذان ولا تحية ، وتفرس عبد الله فى وجه الرجل فلم يميز

ملمحا من ملامحه ولا حتى لون وجهه . وقال مخلوف :

ـــ هذا ابن ضال من أبنائنا يدعى عبد الله ..

فسأل صوت عميق هادىء رغم خفوته :

ـــ ما اسم أمه ؟

ـــ لا يعرف أما ولا أبا ..

فمد الشيخ يده فهمس مخلوف فى أذن عبد الله :

ـــ ضع يدك فى يده .

فصدع بالأمر وهو يتلقى قشعريرة هيبة أو خوف . وسرعان ما سرت من راحة الشيخ إليه برودة لطيفة أنعشته فتركز فى أذنيه ، ومضت دقائق نسى فيها كل شىء حتى ما جاء من أجله كأنما امتص الرجل وعيه كله ثم تردد الصوت العميق الخافت قائلا :

ـــ ستعرف ما تسأل عنه فى حينه بالتمام والكمال .

وسحب يده قائلا :

ـــ اذهبا بسلام .

وغادرا المكان وعبد الله يراوح بين الأمل والخيبة . قال لصاحبه فى الخارج :

ـــ ظننت أننى سأسمع أكثر مما سمعت ..

فقال مخلوف زينهم :

ـــ كلامه بالقطارة ، ثم إنك غير مؤهل لفهمه ..

ولما رجع إلى الوكالة وجد نعمة الله تجالس شابا لم يره من قبل . شاب فى

عز أبهة الشباب جميل الوجه رشيق القامة . فهم من مجرى الحديث أن الشاب يقترح فتح فرع للخردة فى الطرف الآخر من الحارة وأنها تقترح عليه أن يكونا شريكين . ولفت انتباهه الحيوية التى تألقت فى نظرات المرأة وهى ترنو إلى الشاب مما ذكره بالماضى السعيد الذى ذهب . وحانت منه التفاتة إلى عبدون فرجلة فقرأ فى عينيه الحادتين فرحة شماتة صارخة فاشتعل قلبه بنار الغيرة . ومن موقفه الذليل مد بصره إلى رياض الدبش وحلومة الجحش فطالع السخرية مجسدة فلم يشك فى وساوسه . واقترحت عليه شياطينه حلا داميا ولكن ضعفه المتصاعد أخجله . و لم يتبادلا فى نهار العمل كلمة ، ولما أويا إلى مسكنهما دعاها إلى المجلس وأعد بنفسه القرفة والزنجبيل والمخدر . توقع أن تتعلل بعذر ما ولكنها استجابت له فى برود وفيما يشبه التحدى . اضطرب لذلك أكثر مما سر . وزحف عليه خوف مجهول . غاب عن الحاضر المتاح تماما . واكتشف أن ضعفه بات عجزا كاملا . سحب نفسه إلى طرف كنبة واسترق إليها نظرة منكسرة وتمتم :

— إنه الحزن وأنت السبب ..

فقالت ببرود :

— إنى بريئة والحزن برىء !

فقال بصوت متهدج :

— حديثك مع الشاب قتلنى ..

— ما مر يوم إلا استقبلت فيه أشكالا وألوانا من الشباب !

أدهشة صدق قولها وقال معتذرا :

ــ لعلى مريض .

فقالت بثقة :

ــ الحق أنك انتهيت !

سرت الحقيقة فى ذاته كالسم فلم يشك فى أنه انتهى ، وأن حياته فى جوارها توشك أن تنتهى أيضا . ولكن كيف يمكن أن تتنكر له بعد ذاك العهد الطويل من المعاشرة الحميمة والعواطف المتأججة والحب العميق المتبادل ؟!. ماذا تقول وماذا تفعل ، وألا يخونها القول أو الفعل !.. أى كلمات لم تسمع من قبل سيشيعه بها هذا الفم الملىء بالرغبات والحزم !. وتسلل إليها بنظرة خجلى مشفقة فبوغت بالتغير كأنه زلزال منقض بلا نذير . ها هو وجه جديد يطالعه . بلا تردد ولا حرج ولا مبالاة . يتجسد فيه الرفض والإنكار والقسوة . كأنما لا ماض له ولا ذكريات . ولا وجدان ولا ضمير . ولا ذوق ولا حياء . ذهل وفزع فتمتم :

ــ شد ما تغيرت يا نعمة الله !.

فقالت ببرود :

ــ لقد تغيرت أكثر يا عبد الله ..

فتساءل بأسى :

ــ أينتهى كل شىء كأن لم يكن ؟

فقالت بضجر :

ـــ أنت الذى أنهيته !

ـــ لعلى مريض ..

ـــ ولا أمل فى الشفاء .

فهتف حانقا :

ـــ إنك أقسى مما يظن أعدى أعدائك .

فقالت ساخرة :

ـــ بل إنكم لا تفكرون إلا فى أنفسكم ..

ـــ أليس للحب حق ؟

فقالت بنبرة ختامية :

ـــ إذا مات فلا حق له ..

ونهضت متبرمة فمضت إلى الخلوة وأغلقت الباب بقوة . لبث وحيدا مع برودة آخر الليل واليأس . احتدمت الخواطر برأسه كفقاعات الماء المغلى فازداد يأسا وتسليما بالواقع . وبدت له أحلام سعادته كذبة فاجرة قاسية . ومن شدة العناء والإرهاق هرب فى النوم ساعة واحدة . وفى الصباح الباكر هجر البيت متلفعا فى عباءته السوداء ، حاملا بيسراه حقيبة متوسطة الحجم . كانت الشمس ترسل أول طلقة من أشعتها الدافئة ، والحركة تدب فى الجنبات . فتحت نوافذ وأبواب وتتابعت أفواج الخلق . سار بخطوات وئيدة ثقيلة تغشاه مخايل الرحيل. رآه أول من رآه عبدون فرجلة فرماه بنظرة دهشة خلت من الحقد لأول مرة وسأله :

ــ أأنت راحل ؟

فأجاب باقتضاب :

ــ أستودعك الله ..

وترامت عبارته إلى أقرب الجيران فقال رياض الدبش دون مبالاة :

ــ مع السلامة !

وتمتم حلومة الجحش :

ــ يا خسارة !.

وأثار رحيلة اهتماما مؤقتا وشاملا . ورغم إرهاقه كان يرى ما تقع عليه عيناه بوضوح شديد فكأنه يراه لأول مرة فمازج نفوره حنين غامض . واعترضه عم مخلوف زينهم أمام الزاوية فتوقف دون أن يبتسم . سأله الكهل برقة :

ــ أأنت ذاهب حقا ؟

فحنى رأسه بالإيجاب فسأله :

ــ إلى أين ؟

فأجاب دون مبالاة :

ــ لا علم لى بشىء ..

ــ بوسعك أن تبقى حتى تسترد ذاكرتك .

فقال بمرارة :

ــ لا أستطيع ، وقلبى يحدثنى بأننى لن أعرف شيئا ما دمت هنا .

فربت الرجل منكبه بحنان وقال مسلما :

— فى رعاية الله ..

وواصل المسير تتابعه الأعين من النوافذ والدكاكين والطريق . شيعته نظرات متضاربة من الحياد والشماتة ، العطف والكراهية ، السرور والحزن . واصل المسير حتى غيبة المنعطف الأخير عن الحارة إلى الأبد .

من فضلك وإحسانك

اكتشف الحب ، أو اكتشفه الحب ، أول عهده بالمرحلة الثانوية . فى الخامسة عشرة كان ، وفى الرابعة عشرة كانت . اتفقا على خطوبة غير رسمية يحتفظان بها سرا بينهما حتى يبلغ المرحلة الجامعية ، ثم تعلن وتمضى الأمور فى طريقها المعهود . وهو وسيم رشيق ذو سمرة صافية ، وهى فى نفس المستوى فى أعين الناس ولكن جمالها فى قلبه يتلألأ بأضواء مسحورة . ومع أن الأسرتين تقيمان فى عمارة واحدة بشارع مريوط بمنشية البكرى إلا أنهما لم يتعارفا قط ولا تبادلا تحية عابرة ، فاستمد معلوماته القليلة عن أسرة حبيبته « جميلة » من حديثها . عرف أن أباها يدعى عبد الرحيم يسرى ، من ذوى المعاشات ، مترجم سابق بالخارجية ، تركز اهتمامه أخيرا فى العبادة ولعب الطاولة . أما أمها شامة لطف الله فهى مفتشة بالتربية والتعليم ، معروفة بالحزم بقدر ما هى مغرمة بالتلفزيون . ولها أيضا إخوة ثلاثة ، أكبرهم ضابط جيش استشهد فى حرب ١٩٤٨ ، ومهندس واقتصادى موظفان فى شركتين . ولم تكن جميلة متفوقة فى دراستها ولكنه كان هو أيضا يماثلها فى ذلك . وكان مغرما بكرة القدم ويلعبها بمهارة لا بأس بها ، ولا يبدى أى اهتمام بالحياة العامة ، مثله فى ذلك مثل أبيه وأمه ، بل مثل شقيقتيه المهاجرتين

مع زوجيهما بليبيا والبحرين . لم يرتفع فى ذلك المسكن صوت لتأييد رأى أو معارضه رأى أو إعلان موقف ولا حتى كمتفرجين ، فلا مشاركة وجدانية وكأنما ينتمون إلى كوكب آخر . تدور الأحاديث عادة عن المدرسة ، المسلسلات التلفزيونية ، الكرة ، الطعام ، أو شركة الأجهزة المنزلية حيث يعمل الأب إبراهيم الدارجى مراجعا للحسابات ، والأم بيسة فضل الله فى قسم الإعلانات . رأى عبد الفتاح جميلة أول ما رآها فى شارع مريوط الذى يعترض طرفه الشرقى الشارع العمومى المتجه إلى مصر الجديدة . رآها بعد ذلك فى مدخل العمارة . شملهما من بادئ الأمر مناخ طيب يجود بالأنس والاستلطاف . وتبادلا الابتسام والتحية ،

وأعقب ذلك اللقاء فى الشارع العمومى بعيدا عن الأنظار . انفجرت فى قلبه حياة جديدة بقوة ملهمة . فاعترف ، وتم الاتفاق على المستقبل القريب والبعيد ، وحملها أمانة كبيرة وهو يقول لها :

— لا حياة لى بدونك .

ولأول مرة يجاوز اهتماماته الصغيرة إلى حياة جديدة واعدة بثراء جديد ، ويحطم حاجز الانحصار الذاتى واثبا للغير . عاش عامين سعيدا ، عاش فى سعادة حقيقية ، ولكنها انسابت بخفة بلا تركيز أو وعى منه فلم يعرفها — مثل كثيرين — إلا كذكرى . ذلك أن الحب تعرض للاغتيال . وهو نفسه قلل « ليس لى قصة حب ، ولكن قصتى تبدأ بعد وفاة الحب » . تلقى منها رسالة بيد زميلة عاملة بسرهما تنبئه فيها بأنها خطبت ، وأنها عجزت عن إنقاذ

حبها ، وأنها حزينة أسيفة ولكن لا مناص من قطع العلاقة . قرأ وأعاد القراءة . هل يمكن ؟. بلا تمهيد ؟. وهذا الأسلوب ؟، قال للرسولة وتدعى بثينة أو قال على مسمع منها :

ـــ أى جفاء .. إنها برقية لا رسالة ..

فقالت الفتاة معتذرة عن صديقتها :

ـــ عواطفها أكبر من ذلك لكنها لا تحسن الكتابة !

وأخبرته أنها تألمت ، وأنها توسلت إلى أمها أن تتركها وشأنها ، أن تتركها لتنتظره ، وأنها راضية بحظها ، ولكنها لاقت موقفا مصمما ، مسلحا بالحجج الواقعية الصارمة ، من تكاليف الزواج الباهظة ، وأزمة المساكن ، وعجز المرتبات ، وأنه لا أمل لشاب فى الحياة الزوجية إن لم يكن غنيا أو مهاجرا ، وأن الخطيب الجديد حامد بك مظهر هو مناسب جدا فى الظروف الراهنة . أجل إنه فى الأربعين من عمره ولكنه خبير ذو مرتب ضخم إلى جانب نشاط خاص يدر عليه دخلا محترما ، فهو قادر وأهل للحياة الزوجية ، وفى كنفه ستحظى بالحياة الكريمة والسعادة الحقيقية ، لا السعادة الوهمية التى سرعان ما تتلاشى فى خلاء التقشف والضنك ، وحذرتها من أن تظن بها الطمع ، أو تخلط بينها وبين النموذج التليفزيونى للمرأة المادية التى ترفع المادة فوق العاطفة ، المسألة بكل بساطة أن الزواج ضرورى لها ـــ لجميلة ـــ وهو غير ميسر إلا مع رجل مثل حامد مظهر ، ومن حسن الحظ أنه لا تشوبه شبهة من شبهات الانفتاح ، فهو قادر

وشريف ، فلا مفر من التسامح فى عمره وهو على أى حال لم يجاوز السن المناسبة للزواج . ومضت بثينة تقول إن جميلة لم تستطيع أن تقارع الحجة بالحجة ، ولعلها لم تتصور أن الأمور معقدة إلى ذلك الحد فانطلقت تخاطب قلب أمها ، وقلب أبيها أيضا ولكن الأب قال لها « مسايرتك تعنى التضحية بك ، أقسم لك بصلاتى أنى صادق ، ليس ما تشعرين به هو الحب ، فى مثل سنك لا تعرف القلوب الحب الحقيقى ، ستعرفين ذلك بنفسك » . وعند ذاك قالت له بثينة :

ــ لعله مما ساعدها على الإذعان أنها ستنقطع عن الدراسة فهو يريدها ست بيت ، وأنت تعلم أنها لا تحب المدرسة !

تابعها عبد الفتاح بذهول ثم ماج قلبه بالغضب والعذاب ، وأصر على مقابلتها فكلف بثينة بإتمام ذلك . وجاءته فى أصيل اليوم التالى والخريف يقطر مناخا معتدلا . جاءت منكسرة الطرف تتعثر فى الخجل قابضة بأصابع متشنجة على منديلها الأبيض الصغير . حيته بغير ابتسام هامسة :

ــ إنى آسفه ..

حثه منظرها على التمسك بها باستماتة غير أن نبرة صوته نمت عن الغيظ وهو يقول محتجا :

ــ تقتليننى ثم تأسفين !. ماذا أصنع بأسفك ؟

فقالت له بحرارة :

ــ حزنى أشد مما تتصور ..

فقال ساخرا :

ـــ صدقت فيما يتعلق بتصورى ..

ـــ لا تظلمنى ..

ـــ أعلنى الرفض وأصرى عليه ..

صمتت فى حيرة جلية فطفر الغيظ إلى قسمات وجهه وتساءل :

ـــ ماذا قلت ؟

فقالت وهى تتنهد :

ـــ لن نستطيع الزواج كما نتمنى ..

فقال مستسلما لغيظه :

ـــ أعرف ما قيل وما يقال ولكن الحب أقوى من ذلك ..

فقالت وعيناها تدمعان :

ـــ الواقع أقوى من أمانينا .

ـــ المسألة أن حبك ليس بالقوة التى ظننتها .

ـــ لا تظلمنى .

شعر بأنها لا تريد أن تعدل عن قرارها . إنها لم تعد تحبه . إنها لم تحبه قط .

هتف غاضبا :

ـــ أكذوبة !

تمتمت بانزعاج :

ـــ ماذا ؟

ـــ خاب ظنى فيك .

قالت بتوسل :

ـــ لا تزد فى عذابى .

لوح بيده غاضبا فأصابت أنامله جبينها فتراجعت مذعورة . أفاق من غضبه . وثب نحوها قائلا :

ـــ معذرة .. لم أقصد ..

ـــ كفى ..

ـــ أكرر الأسف ..

فقالت بصوت هادئ :

ـــ يجب أن أذهب ..

فتحول عنها دون تحية . توغل فى الطريق صوب الشمال والظلام يهبط ودفقات من الهواء الرطب تهب . عجب من فراغ الوجود من كل شىء إلا نبض الألم فى أعماقه . ألم وفراغ . فراغ وألم . إن لم يكن الحب مرضا فلا بد له أن يوجد له دواء . ولكن أين وكيف ومتى ؟. وفكر فى أنه أخطأ فى تركها تفلت من يده فاستدار وراح يعدو ليلحق بها ولكنه لم يعثر لها على أثر . ورجع الفراغ ورجع الألم . وحلم أنه يستطيع أن يقتل أمها فقرر أن يقطع رأسها تحت المقصلة . استحضر بخياله صورة المقصلة كما رآها فى فصل الثورة الفرنسية . يا للداهية !.. ما هذا الفراغ وما هذا الألم . ولأول مرة يعانى الوحدة وهو وسط أصحابه وهم يقضون الفترة الأخيرة من العطلة

الصيفية . رغم أنهم جميعا على شاكلته ممن لا يكترثون للحياة العامة وتستغرقهم الشئون الخاصة . وبدافع من كبرياء لم يبح لأحد منهم بسره . أما أكثر اليوم فخلا فيه إلى نفسه فى حجرته الخاصة — للنوم والدراسة معا — غارقا فى التأمل . ولم يخرج من عزلته فى سهرة التلفزيون حيث تجتمع الأسرة وكأنها غير مجتمعة . غرق فى التأمل حتى وجد نفسه ولأول مرة يسأل عن معنى حياته أو معنى الحياة . ومضت المعانى تتلاشى وتتبخر فى الهواء . وقلب عينيه بين جدران الحجرة وسقفها وكأنما يجول فى الكون ثم سأل :

— هل يوجد فى قلب هذا الكون هدف أو معنى ؟!

لو عرف هذا الهدف الكونى عرف بالتالى معنى حياتنا . ولكن ما السبيل إلى معرفه هدف الكون ؟. كيف نحمله على البوح بسره ؟. كيف ننقذ حياتنا من العدم ؟!. لم يجد نفسه فى هذا المقام الحائر نتيجة لثورة أو فكر ، ولكنه وجد نفسه فى خضمه بتلقائية من لا يملك ذخيرة أو تراثا . ذلك أنه نشأ فى جو خاص غير عادى . جو خلقه والدان من نوع خاص أيضا . إبراهيم الدارجى الأب مشغول بالحياة لدرجة لم تترك له فراغا لتساؤل أو تأمل . إنه أبعد ما يكون عن الطراز المتدين ولكنه فى الوقت نفسه أبعد ما يكون عن النموذج الملحد أو الشاك . لم يتفوه طيلة حياته بكلمة مع الدين ولا كلمة ضده . الدين بالنسبة إليه غير موجود أو مختف فى ظل كثيف ، ولا يخطر له ببال ، ولا يتذكره إلا فى المناسبات النادرة ، وقد ترد فى كلامه

مصطلحات دينية يرددها دون أدنى انتباه إلى مغزاها فيقول أحيانا « الله أعلم » ولا تعنى عنده أكثر من « لا أدرى ». وعيد الفطر عنده كعك وعيد الأضحى عنده « لحمة » . والأم بيسة لا تختلف كثيرا عن زوجها فى لا مبالاته الفطرية وإن لم تخل من إيمان بالشعوذة والسحر . فلم يعبق البيت بنفحة دينية ولو عابرة . هذا هو الجو الذى نشأ فيه عبد الفتاح . و لم تضف إليه المدرسة سوى حكايات تحفظ وتنسى ، وألفاظ تشرح وتعرب ، وامتحانات يودعها محفوظاته قبل أن تتلاشى . وفى المدرسة عبرت أمامه ومن حوله تيارات متضاربة دينية ومادية ، فلم يهتم بها ، وسخر منها . ولذلك لم تتوثق الصلة بينه وبين أحد المنتمين إليها واختار أصدقاءه ممن هم على شاكلته من اللامبالين . ومع ذلك هزته الهزيمة فوجم وتألم ولكنها لم تعدل به عن طريقه بل لعله أوغل فيه أكثر وأكثر . من أجل ذلك كله وثب فى أزمته إلى الكون يسائله عن معناه وهدفه بتلقائية ويسر دون أن تعيقه عن ذلك عقيدة سابقة . تعلق بالكون باعتباره الأمل الأخير الذى يمكن أن ينتشله من الفناء الزاحف على قلبه وروحه . ترى هل يوجد سر ذلك عند أحد من البشر ؟. هل تتضمنه حكمة أو علم أو فلسفة ؟، وأليس مما يفزع أن ترتفع فجأة من كرة القدم إلى قلب الكون دفعة واحدة ؟!. وتوهم أن عالمه الداخلى يتوارى عن الأعين القريبة بما يفور فيه من تساؤلات حارة مستميتة ولكنه لاحظ فى أعين والديه محاولات أبوية قلقة تروم النفاذ إلى أعماقه . وضح ذلك يوم الأحد — يوم العطلة الأسبوعية — عندما دعواه

للجلوس معهما فى حجرة المعيشة عند الضحى . توقع فى الحال استجوابا حميما فضاق به قبل أن يعلن . وصدق حدسه عندما تساءل أبوه وهو يغوص بروبه الخفيف فى الفوتى الأرجوانى :

— مالك يا عبد الفتاح ؟!

فتظاهر بالدهشة لغرابة السؤال فقالت أمه :

— لست كعادتك ، لا خفاء فى ذلك ..

وقال أبوه :

— بعد أيام معدودة سيبدأ عام الثانوية العامة ، وهو عام يتقرر فيه المصير !

وقالت بيسة :

— ونحن أصدقاء ولا يجوز أن يحجز بيننا سر ..

قال محاولا الاحتفاظ بسره الغريب لنفسه :

— أنتما واهمان .

فقال الأب وأنامله تناجى حبات سبحته القهرمانية التى تلقاها هدية واستغلها لامتصاص القلق :

— بل إن صحتك ليست على ما يرام .

— أشعر بتمام الصحة والعافية ..

— إنك تمر بفترة من العمر شديدة الحرج ..

ضحك ضحكة جافة . تغير موقفه بغتة . جرفته موجة استهانة كرد فعل

للسهاد والألم . قال :

ـــ الحق أنه يشغلنى سؤال محير !

ـــ أى سؤال يا بنى ؟

قال ممهدا بضحكة كالاعتذار :

ـــ سؤال عن الهدف الكونى !

تفشى صمت ثقيل حتى صار له دوى فى الآذان . نظر والداه إليه طويلا ، ثم تبادلا النظر طويلا . وتمتم الأب متسائلا :

ـــ الهدف الكونى ؟!

فتساءل عبد الفتاح :

ـــ هل أندم على مصارحتكما بالحقيقة ؟

فقالت بيسة بسرعة :

ـــ أبدا .. ولكننا لم نفهم ..

فقال بتحد :

ـــ إنى أسأل هل فى الكون هدف !

فتساءل أبوه :

ـــ الكون دفعة واحدة ؟

ـــ الكون دفعة واحدة .

ـــ الكون شىء فوق التصور .. ماذا يهمك من ذلك ؟

ـــ لن أعرف هدف حياتى ، إن لم أعرف الجواب ..

قال الأب برقة وبجهد :

— إنك كمن يريد أن ينتقل إلى مصر الجديدة عن طريق مدينة الكاب بجنوب أفريقيا . لم لا تستعمل هذا الطريق الممهد الذى نراه من نافذتنا ؟

فقال بيأس :

— لا معنى لحياتى إن لم أعرف ذلك الهدف البعيد !

فرمقه إبراهيم الدراجى بحنان وقال :

— عليك أن تنجح فى الثانوية العامة ، وأن تحرز المجموع الذى يفتح لك أبواب الكلية التى تريدها ، وأن تعمل ، ثم تتزوج وتنجب ذرية ، وتستمر فى التقدم حتى تنعم بمعاش مستقر سعيد ، هل يوجد هدف وراء ذلك ؟!

فتساءل بامتعاض :

— وماذا بعد المعاش المستقر السعيد ؟!

فقال الرجل وهو يكظم غيظه :

— يجرى علينا ما جرى على الناس منذ آدم !

فقال عبد الفتاح بعصبية :

— معنى ذلك أنه لا يوجد معنى يستحق أن نعيش من أجله !

فتساءل الأب ضاحكا :

— لا بد من معرفة هدف الكون ؟!

— وإلا فلا معنى لشىء على الإطلاق ..

ونمت نبرة الرجل عن غيظ مكتوم وهو يقول :

ـــ وكيف تعرف هذا الهدف ؟، كيف تتابعت الأجيال دون أن تعرفه ؟، وهل تؤجل امتحان الثانوية العامة حتى تعرفه ؟!

فقال الشاب في حزن :

ـــ أعرف أنه سؤال مثير للسخرية ولكنى وقعت فى قبضته ..

فقالت بيسة بجزع :

ـــ لا تقل ذلك ، عليك أن تنقذ نفسك ..

وقال أبوه بحرارة مدافعا اليأس :

ـــ حتى لو وجد جواب فهو لن يجىء بين يوم وليلة .

فصمت عبد الفتاح فواصل الرجل برجاء :

ـــ لا خلاف فى ذلك ، فلنبدأ بالممكن ..

قالت الأم وهى فى غاية من القلق :

ـــ لنبدأ بالممكن ..

فواصل الأب :

ـــ بوسعنا أن نخلق هدفا لحياتنا وأن نحققه ، ولك ألا تكف عن التفكير فى الآخر ، ومن يدرى فربما عرفته بعد عمر طويل !

وتنهدت الأم فى ارتياح قائلة :

ـــ حل موفق ، أليس كذلك يا عبد الفتاح ؟!

وقال الأب برجاء حار :

ـــ أعلن موافقتك أرجوك ..

ابتسم ابتسامة شاحبة فى استسلام . اقتنعت الأم بأنه اقتنع . قالت بفرحة طفولية :

— سنسهر الليلة فى الميرى لاند ، لم نسهر معا منذ مدة ، أمامنا عشاء ساهر وشراب منعش ..

وعند العشاء شرب قدحين من النبيذ فتلقى نشوة فرجت كربه وأشعلت ضوء الابتسام فى ثغره وعينيه حتى قال الأب لنفسه مستوهبا العزاء :

— سحابة وانقشعت ..

ووجد الشاب نفسه ترحب بالحل الموفق . ربما هربا من المأزق الخانق الذى يهدد بالشلل . وحمل والديه مسئولية تراجعه السريع تفاديا مـن الاعتراف بالهزيمة . رأى أن يطوى اليأس فى ركن من نفسه وأن يرسم لحياته خطة كالآخرين ، ومن يدرى فقد يدهمه الجواب من أعماق الحياة نفسها ، وما الهدف الذى يختاره ؟. كلية الطب . حياة ثرية من الناحيتين العلمية والمادية ، زواج إنجاب ، وإن يكن الناس يتساوون فى الموت فـإنهم لا يتساوون فى الحياة ولا فى الذكر . المهم الآن أن يمحق من قلبه جميلة وخيانتها ، وأن يقتلع الحب من جذوره ليستعيد توازنه . وتمنى أن تزف إلى حامد مظهر سريعا لعله يداوى الألم باليأس . وحدث ذلك فى الأسبوع الأول من العام الدراسى . وقف عند ملتقى شارع مريوط بالشارع العمومى ليلقى نظرة على موكبها الصغير وهو يميل نحو مصر الجديدة . وبالرغم من توقعه لذلك وتعجله له فقد أصابته هزة عنيفة فاقت تقديره وتخيله . سهر

ليلتها فى حجرته حتى الصباح على ضوء بطارية صغيرة . قضى أكثر الوقت واقفا أو ذارعا الحجرة أو مرسلا طرفه من النافذة إلى الليل الشامل . ومن خلال تجربة طارئة التحم بأثاث حجرته التحاما غريبا جنونيا . ومضى فى التجربة على رغمه كأنما يؤدى طقوسا لأوثان وقع تحت سيطرتها بقوة سحرية . جذب الفراش عينيه بدعوة نابعة من الصميم . وكأنه يكتشف لأول مرة الفراش الخشبى ذا اللون البنى الغامق ، والملاءة البيضاء والغطاء البنفسجى المطوى للنصف . وبإدامة النظر إلى الفراش ومحتوياته دبت فيه — الفراش — حياة من نوع ما ، فتبدت الوسادتان لعينيه ترنوان إليه ، وشملت الملاءة والغطاء ألفة قديمة لا تكون إلا بين الأصحاب . ونفذ بصره إلى الأعماق فرأى القطن المكدس فى الحشية وراح يعد خيوطة الملتفة المضغوطة وهو يشعر بأنه سيختم الإحصاء بوثبة فى المجهول قد لا يرجع منها . وتفرس فى مكتبه فى الجانب المقابل من الحجرة وهو يحمل صفين من الكتب يفصل بينهما السومان فرآه يبادله النظر داعيا إياه إلى سماع حوار حار دائر بين الكتب لم يكد يلاحقه من سرعته وحيويته وما ينذر من خطورة متعددة العواقب . ومد بصره إلى مرآة الدولاب القائم بين المكتب والفراش فعكست له صورته على ضوء البطارية الخافت جسما بلا رأس ، ومن عجب أنه لم يدهش لذلك و لم ينزعج ولكنه فتح الدولاب كأنما ليبحث عن رأسه فى داخله فرأى بدله مشتبكة فى معركة بالأيدى والأرجل فتراجع إلى فوتى يتوسط الجدار المواجه للدولاب وانحط عليه وأغمض عينيه فانفجرت

فى رأسه خواطر مضطربة متلاطمة لم يستطع أن يمسك بواحدة منها متكاملة إذ سرعان ما تتلاشى فى أخرى مؤججة رغبة متصاعدة فى الإمساك بأى شيء ذى شكل سليم واضح ، وظل فريسة الأطياف حتى نضحت النوافذ بضوء الصباح المترع بالخريف . انطوت الليلة و لم تتكرر وعزم على أن ينفذ خطته المرسومة . غير أن الكون لم يغب عنه تماما فكان يزوره من حين لآخر مذكرا إياه بحزنه المخزون المؤجل . وبالمثل كانت تهب عليه نفحات من صحراء الحب المهجور . ولكنه مارس حياة ناجحة فيما عدا ذلك وبشرت حاله ببلوغ المرام . ولما أعلنت نتيجة الثانوية العامة جاءت مخيبة للآمال . آمال آل الدارجى ، ومن خلال التنسيق ضاعت الطب والهندسة والعلوم فلم يجد إلا الحقوق لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وكانت تقبل عددا محدودا من الثانوية علمى . جاءت النتيجة صدمة لإبراهيم الدارجى وقال وكأنه يدافع عن كرامته الشخصية :

ـــ هذه النتيجة تقطع بأنك لم تكن فى أحسن أحوالك .

وقالت الأم :

ـــ رأيى أن تعيد السنة ..

ولما كان أدرى بذاته فقد قال بتسليم نهائى :

ـــ لتكن الحقوق !

و لم يشأ أحد أن يضغط عليه فقال الأب :

ـــ على أى حال أمامك فرصة للعمل فى النيابة .

أما هو فقال لنفسه بمرارة « فشلت الخطة » . واعتمد فى عمله على إرادته وحدها ، وبلا دافع حقيقى . أجل شفى من الحب وتحرر من قبضة الكون ، ولكنه لم يقهر الفتور المستقر فى همته . ومضى فى طريق النجاح الذى لا يشر بأى تفوق أو امتياز حتى حصل على ليسانس بلا تهانى وعن طريق توزيع القوى العاملة ألحق كاتبا بالنيابة العمومية . حزن الأب إبراهيم والأم بيسة لذلك حزنا شديدا . إنه الابن الوحيد ، والحلم الكبير ، وها هى النهاية تتجسد أمام عينهما كتمثال للخيبة . وفاق حزنه حزن والديه ولكنه لم يدر بأى لسان يحتج على مصير صنعه بيديه . بل ذكر بكآبة أنه لم يمارس التفوق فى حياته أبدا . وأن الأرجح أنه لا يستطيع أن يخلق لحياته هدفا خيرا من هذا . وقال لأبيه :

ــ أكثرنا الحديث يوما عن الحياة والهدف ولكننا نسينا أمرا هاما ، خبرنى الآن هل تعرف أحدا من الكبراء القادرين على تجديد الأهداف ؟!

فقال إبراهيم الدارجى بامتعاض :

ــ نشاطى يجرى فى مجال آخر ، ولكن صبرا ، ستهاجر ذات يوم لعمل مثمر فى الخارج ..

تمثل له « الخارج » فى صورة منارة تشع نورا من بعيد . وراح يوازن بين مرتبه الجديد وبين مصروفاته التى تعود عليها فى كنف والديه ثم تساءل كيف يواجه الحياة لو غاب والداه !. ولأول مرة يشعر شعورا ذاتيا كم أنه فقير و كم أن الغلاء وحش مفترس . وتذكر فى الوقت نفسه الفارق الهائل بينه وبين

رئيسه المباشر رغم أنهما متخرجان فى كلية واحدة . ما هو إلا ذرة رمل فى صحراء التفاهة . وسيمضى من سيئ إلى أسوا . وما الراحة التى ينعم بها إلا هدية مهداة من والديه العاملين . عليه ألا يركن إلى الطمأنينة العابـرة الخادعة ، وأن يفكر فى المستقبل بجدية . تلزمه وثبة قوية غير معقولة . طفرة غير متوقعة وغير منطقية . بأى ثمن يجب ألا تضيع الحياة هباء . ونحن فى زمن الخوارق . ولكنه لا يحب أيضا المغامرة ولا يحب السجن . ولا يجوز انتظار المعجزة من « الخارج » وحده فقد يطول الانتظار ، وخبرته لا يحتاج إليها « الخارج » مثل الخبرات الأخرى . الطريق شبه مسدود ولكن اليأس يعنى الموت . وحام خياله المحموم حول حياة النجوم من الممثلين الذين يمرقون إلى الهدف بسرعة الضوء ، وربما من خلال فيلم واحد . لا وقت للطريق الطويل ولا قلب للمغامرة المحفوفة بالخطر . وغطى عمله الجديد على أحلامه المؤرقة فكشف له عن عالم من التجارب الطاحنة . إنه يجلس إلى يسار المحقق باسطا أوراقه على المكتب ، متطلعا إلى المتهمين الواقفين أمام المكتب . يرى ويسمع ويسجل . وتنهمر فوقه عوالم الأسرار . تراخى التحامه بأحلامه أمام المهربين والمختلسين والمرتشين واللصوص . إنهم أناس لا يختلفون عن الآخرين فى أشكالهم وأصواتهم ، لا سمات تقليدية لهم مثل أشرار السينما ، ووراء كل واحد منهم حلم يذكره بأحلامه ، كلهم بنجذبون إلى أضواء الحياة كما تهيم الفراشات حول المصباح . وهم يذكرونه بنفسه ، ويذكرونه بأبيه وأمه أيضا . وعجب لذلك بقـدر مـا انزعـج لـه . لم يذكرونـه

بوالديه ؟!، ربما لتشابه فى الوظيفة ، أو الاهتمامات ، أو المحركات العارضة . ووجد نفسه يتساءل لأول مرة هل يتناسب دخل والديه مع مصروفاتهما ؟! . إنهما فى الواقع لا يكترثان للغلاء ، ولا يخلو أسبوع من وليمة تقام للأصدقاء ، وفى العامين الأخيرين جددا أثاث الشقة واقتنيا عددا من التحف والسجاجيد والنجف لا يستهان به . حقا إنهما لم يشتريا شيئا ذا قيمة ثابتة كعقار أو سندات ولكنهما ينفقان عن سعة باتت تثير فى نفسه الخوف والكآبة . شك فى والديه وغزاه هم جديد انضاف إلى همومه الشخصية . وتعملقت همومه عندما أدلى إليه زميله عبد اللطيف محمود — كاتب يسبقه بأقدمية خمس سنوات — برأيه فى طبقات المجرمين . وكان عبد الفتاح قد تلقى تدريبه فى العمل على يديه ، ولما آنس إليه همس له برأيه وهو أن القانون لا يطبق إلا على العاديين من الناس أما الأقوياء فيسبحون فوق القانون ، إلا فيما ندر ولا يقاس عليه . لم يصدق ولم يكذب ولكنه مال إلى سوء الظن . كما مال إلى اتهام والديه . وتساءل كيف يجنبهما المصير الأسود ؟!. وطرح السؤال يعنى فيما يعنيه أن شكه فيهما انقلب حقيقة من حقائق حياته المرة ، ولذلك دارى رعبه بضحكة لا معنى لها . واهتدى إلى خير وسيلة لتحذيرهما وهى أن يقص عليهما لدى كل مناسبة طرفا من أخبار المنحرفين الذين يسجل اعترافاتهم يوما بعد يوم ، ويشهد عن كثب دموع البعض وهى تنعى آمالهم الخائبة . تصور ببدن مقشعر والديه وهما يزحمان مع الآخرين طرقات المجمع القضائى مثل حبات البن المتدافعة فى وعاء الطاحونة . وجعل يرقب الاثنين

بإمعان ويتفحص ضيوفهما من الرجال والنساء . جميعهم أناس أذكياء وبلا مبادئ ، المال معبودهم . والنجاح دينهم ، والمغامرون هداتهم . يشوهون الأسماء الرنانة دفاعا عن أنفسهم وتبريرا لسلوكهم الخفى . ويقول لنفسه :

ـــ برح الخفاء !.

وازداد صدره انقباضا . ترى كيف يتحمل المصيبة إذا وقعت ؟!. إنها خليقة بتدمير أى شخص حتى ولو لم يكن من التافهين . وتنهد وهمس لنفسه « إلا شخصا واحدا » ، ورجع يحوم حول النجم ونجاحه وكيف يتألق ويواصل التألق ولو تسربل بالفضائح !، شد ما تداعبه هذه الفكرة . وتحفر سراديبها فى وجدانه برشاقة وإغراء . غير أنه نحاها إلى حين ليجرى مع ذاته تحقيقا فريدا . هل يقدم على الانحراف إن وعده بتحقيق الآمال ؟!. وراح يتفحص أعماقه بصدق وصراحة . وتبين له أنه لا يملك مناعة ضد الانحراف فى ذاته ، ولكنه جبان يؤثر السلامة !. على ذلك ترك الموضوع دون حسم . وإذا بمكتب التحقيقات يسوق إليه تجارب جديدة ومثيرة ، فيكشف له التاريخ عن وجهه ويريه من آياته ما جهل . حقا عرف الكثير من خلال قضية اتهم فيها بعض رجال العهد الماضى بالتآمر على قلب نظام الحكم . رأى وسمع وسجل ورجع إلى شارع مريوط بمعلومات جديدة عن ماضى بلده القريب . واستسلم لأحلام اليقظة فتخيل نفسه بطلا من أبطال العهد البائد ، فخاض المعارك المنقضية ، وأحرز انتصارات لم يعد أحد يذكرها

بالخير ، وتساءل وهو منفرد بنفسه فى حجرته .

ـــ لماذا أتعاطف دائما من المتهمين ؟!

وزودته أحلام اليقظة بوقود جديد بظهور متهمين معاصرين على المسرح ، من ذوى العقائد الدينية ، وذوى العقائد المادية . أذهلته جرأتهم ، واستهانتهم بالعواقب ، وتحديهم التحقيق والمحقق . لأول مرة يتلقى تلك المبادئ كتجارب حية ممثلة فى أحياء ، كحجج تفوح برائحة اللحم والدم ، كتضحيات تستهين بكل غال ، فيم يختلف عن هؤلاء الشبان ؟!. كيف افترقت الهويات والمصائر ؟!. وركب الخيال فجرد سيفه حينا ، وقبض على المطرقة حينا آخر ، وهام فى وديان المجد المخمور . هام طويلا حتى أدركه الإرهاق والملل . وعاد يتساءل :

ـــ كيف أستخلص نفسى من مستنقع التفاهة ؟!

الهجرة ؟، النجومية ؟، الانحراف ؟، الماضى ؟، الله ؟. الثورة ؟. المهم أن ينجو من الواقع الكئيب . واتفق فى ذلك الوقت أن أهداه الأب إبراهيم حجرة جديدة عصرية بطاقمها المكون من الفراش والدولاب والشيفونيرة والتواليت وسجادة فرنسية . قال له :

ـــ تغيير الجو يجب أن يساير تغيير الشخصية .

فغمغم :

ـــ أى شخصية ؟!

وفكر فى ثمن الحجرة فاستعاد شكوكه ببراءة جديدة . وقرأ الأب صفحة

وجهه فاستشف معانى أخرى فقال :

ـــ الهجرة آتية فاصبر قليلا ..

الصبر جميل لكنه مر . و لم ينقطع عن التفكير فى البدائل المتاحة . وسمع زميله عبد اللطيف محمود ينصح ضيفا بالانضمام إلى حزب الأغلبية . و لم يكن يفرق بين جده ومزاحه ولكنه أنصت إليه وهو يقول للرجل :

ـــ الانضمام يضمن لك التمتع بحقوق الإنسان !

فكر أنه بوسعه أن ينضم ولو إلى لجنة الحى ولكنه حزب ضخم يحوى الملايين وهيهات أن ينتشله من ضياعه ، أو يخرجه من شرنقة التفاهة . فرق كبير بين أن تركب سيارة ولو صغيرة وبين أن تنحشر فى أتوبيس . فى الوقت ذاته فإنه من الجنون أن يسعى إلى أهل الدين أو أهل المادة فيعرض نفسه للهلاك !. كلا . إنه لم يخلق لذلك . و لم يبق أمامه إلا الهجرة أو الفن !. وانبعثت فى نفسه وثبة متحدية ذات مساء وهو يحتسى قليلا من النبيذ فى تافرنا . رقصت النشوة فى رأسه فانساب طموحه الحائر فقرر أن ينفلت من قبضة الأحلام وأن يفعل شيئا . سعى إلى مقابلة بعض المخرجين وعرض عليهم نفسه كقانونى يهوى التمثيل ، مستمدا من شكله وحجمه ثقة وأملا . قال له المخرج :

ـــ لا يمكن تشغيلك إلا إذا كنت متخرجا فى المعهد ..

فقال بثبات :

ـــ يمكن كوجه جديد مرشح للبطولة !

ودعى إلى الاختبار . ولولا اليأس ما تغلب على ارتباكه . وكان يترك عنوانه ويذهب . وينتظر ثملا بأحلام اليقظة بعد أن حل البلاتوه محل الجهاد والفردوس الأرضى . ولكنه لم يرده خطاب . وطال انتظاره حتى شطب فرق الفن فى سجل آماله المتهاوية أسوة بالنشاط السياسى كله فلم يبق إلا « الخارج » كأمل أخير . وسأل أباه ذات مساء :

ـــ لا أخبار عن الهجرة ؟

فأجابه بوجوم :

ـــ انتظر الوقت المناسب !

التقط إحساسه المشحوذ بسوء الظن نبرة جديدة فى صوت أبيه . نبرة توحى بالهزيمة . انظر جيدا . ليس الرجل كعادته ، ولا أمه . إنهما يعانيان قهرا مجهولا تبدى فى نظرة العين ، وشهية الطعام ، والحديث . وقال لنفسه « هل يتلاشى الأمل الأخير ؟. سيقع شىء غير سار » . وصدق حدسه فأعلن أبوه أنه طلب إحالته على المعاش لسوء حالته الصحية ، ولحقت به أمه فى نفس الأسبوع معتلة بنفس العلة !. ذهل عبد الفتاح وهمس له سوء ظنه بالحقيقة الخفية ، لا شك أنهما اضطرا إلى ذلك اضطرارا وتفاديا من عاقبة أسوأ . الصحة بريئة تماما ، كانا من أحسن الناس عافية ومرحا . وجاراهما فتظاهر بالقلق على صحتهما واستمع إلى حديث طويل عن الضغط والطبيب ، وقال بحرارة مصطنعة :

ـــ الصحة أهم من العمل والمال ..

وتوقفت حياة الترف المعهودة . انطفأت الشعلة ، وبدوا كئيبين واجمين ، وانتهت ليالى الولائم ، وخيم على البيت جو غريب من الإثم والعقوبة ، واختفى أصحاب المنفعة والانتهازية فخلا المسكن إلا من المنبوذين . وأمسى للنقود قيمة جدية فلم تعد تنفق إلا بحساب ، وتردد ذكر الغلاء مصحوبا بلعن الانفتاح وذم المتاجرين بأرزاق الشعب !. و لم يخدع عبد الفتاح بهذا الصوت الوطنى الطارئ وعرف سره . إنه يكتسب كل يوم خبرة فى مكتب التحقيقات أثرت رؤيته وأفعمته بسوء الظن . لن يخدعه نقد المنحرفين إذا حيل بينه وبين الانحراف . وامتنعت المعونات التى كان يحظى بها من والديه ، وتضاعف قلقه عندما سمع أباه وهو يقول :

ــ لا مفر من بيع بعض التحف لمواجهة الغلاء !

فمضت الدائرة تضيق حول عنقه ويديه وتخلقت فى حياته أزمة جديدة هى الأزمة الجنسية التى لم يشعر بوطأتها من قبل . وقال لوالده :

ــ إنى أعجب للذين لم ينحرفوا فى هذه الظروف الطاحنة ..

فقال أبوه بيقين ساخر :

ــ هم الذين لا حاجة بهم إلى الانحراف ..

فوافقه الشاب قائلا :

ــ صدقت ، فلكى يعيش فرد بلا نقود كافية يجب أن يكون صاحب معجزة ..

فقال إبراهيم الدارجى ساخرا :

ــ وقد انتهى عصر المعجزات :

فتنهد الشاب قائلا :

ــ الهجرة إلى الخارج هى الأمل الأخير ..

فقال الرجل بلا حماس :

ــ انتظر واصبر ولا تيأس !

ولكن إلى متى ؟. وإن وسعه أن يصبر مع التفاهة فكيف يروض وحش الجنس ؟. حقا كانت أم حبيبته الغادرة بعيدة النظر ، ولو أن الفتاة انتظرته لخيب أملها وفضح نفسه . وسأل زميله عبد اللطيف محمود :

ــ ألم تفكر فى الزواج ؟

فأجاب ساخرا :

ــ أفكر فيه عدد شعر رأسي ..

ــ هل استعددت له ؟

فأجاب بعظمة :

ــ سأكون مستعدا عام ٢٠٠٠ !

فابتسم فسأله عبد اللطيف :

ــ وأنت ؟

فأجاب باقتضاب :

ــ حالى حالك !

فقال ضاحكا :

ـــ احلم بأن امرأة غنية وقعت فى هواك ..

ولكن الأحلام أرهقته حتى الملل . وإنه على أتم الاستعداد للتخلى عن طموحه كله على شرط أن يتزوج وينجب قانعا كل القناعة بتفاهته . وقال لنفسه « رضينا بالحد الأدنى ولكنه لا يرضى بنا ». وهبط عليه إلهام غريب فى تافرنا وهو يحتسى النبيذ . أن يعلن حربا على الدولة !. أن يكتب منشورات سرية ، دينية تارة ومادية تارة أخرى ، ويرسلها إلى شتى الجهات ذات الخطورة فينشر بذلك القلق والرعب ويستمتع بالنصر والعبث . ما عليه إلا أن ينقل الآلة الكاتبة الخاصة بوالدته إلى حجرته بحجة أنه سيكتب عليها المتأخر من أعماله الحكومية . استجاب للإلهام وعزم على تنفيذه ، وبذلك ينقذ نفسه من عذاب الانتظار والملل والتفاهة !. وراح ينفذ مشروعه بحماس وسرور وشيطنة . ويودع المنشورات فى مظاريف ويرسلها لشخصيات رسمية وغير رسميه . ورغم أنه استلهم مضامينها من منشورات اطلع عليها خلال التحقيقات إلا أنه زاد نقدها حدة وتهديداتها عنفا . و لم يركز على صندوق بريد أكثر مما يجب فنوع الشوارع والأحياء ، وانهمك فى العمل بقوة كأنما هو هدف حياته . وانتظر أن يتلقى أصداء عمله الخفى طويلا حتى أوشك أن ييأس . وإذا بعبد اللطيف محمود يهمس فى أذنه ذات صباح :

ـــ يتحدثون عن نشاط دب فى القوى الهدامة !

فخفق قلب عبد الفتاح واندفع متسائلا :

ــ المنشورات ؟!

وأدرك للتو تسرعه ففزع ، وسأله الآخر :

ــ متى عرفت ؟

فأنقذ نفسه قائلا :

ــ فى المقهى يتحدثون !

ووصى نفسه بالحرص والحذر . فقال عبد اللطيف :

ــ أجهزة الأمن فى غاية من النشاط ..

فتراوح بين السرور والخوف وتساءل :

ــ كيف ؟

ــ المراقبة والتفتيش !

غض بصره إخفاء لانفعالاته . لم يكن هذا مقصده . تصور ما يتعرض له الأبرياء بسبب عبثه فغاص قلبه فى صدره . وأمضى اليوم قلقا منزعجا كئيبا . لم يجلس إلى الآلة الكاتبة مرة أخرى . وتساءل هل يجيئون بهم ليسجل أقوالهم ؟. وفى اليوم التالى دس إليه زميلة عبد اللطيف ورقة قائلا :

ــ إليك منشورا !

تلقى المنشور بقلب خافق ، ولكن قلبه توقف عن الخفقان عندما تبين له أنه منشور آخر حقيقى لا علاقة له بعبثه !. الجد والعبث يسيران جنبا إلى جنب ، ولكن ذلك لن يبرئه من الذنب فلا شك أن منشوراته تعتبر أيضا مسئولة عما يجرى من تفتيش وتحقيق . ودار رأسه فشعر بأن أصبعا ستشير

إليه بالاتهام . وفى صباح اليوم التالى لم يجد عبد اللطيف محمود على مكتبه . وسرعان ما علم بأنه ألقى القبض عليه فيمن ألقى القبض عليهم . قال له رئيس المكتب :

ـــ كان منهم ونحن لا ندرى !

أغمض عبد الفتاح عينيه مغالبا انفعالاته التى تموج بإعصار همجى . ولم يترك طويلا للتأمل إذ دعى لمكالمة تليفونية لأول مرة مذ التحق بالعمل . وجد أن المتكلم هو والده قال له :

ـــ فرجت ، استعد للسفر ، والتفاصيل وقت الغداء !

فرجت حقا !. الثروة فى الطريق ولن تستعصى مشكلة عن حل طيب . وقال لنفسه ساخرا إنها نهاية سعيدة جديرة بمنحرف من صلب منحرفين !. واستحضر صورة الكون ممثلة فى السماء والأرض قال :

ـــ خبرنى عن الهدف من فضلك وإحسانك !

قِسمتي ونصيبي

عم محسن خليل العطار أجزل الله له العطاء فيما يحب ويتمنى عدا الذرية . دهر طويل مضى دون أن ينجب مع مجاهدة للنفس لترضى بما وهب الله وبما منع . كان متوسط القامة ممن يؤمنون بأن الخير فى الوسط . وكان بدينا وعنده أن البدانة للرجل كما للمرأة زينة وأبهة . وكان يزهو بأنفه الضخم وشدقيه القويين وبالحب المتبادل بينه وبين الناس . وحباه الحظ بست عنباية ذات الحسن والنضارة والطيات المتراكمة من اللحم الوردى الناعم ، إلى كونها ست بيت ممتازة ، يغنى سطح بيتها المكون من دور واحد بالدجاج والأوز والأرانب ، ويلهج عشاق مائدتها بطواجنها المعمرة وفطائرها السابحة فى السمن البلدى . دنيا مقبلة فى كل شىء ولكنها ضنت بنعمة الإنجاب فى عناد تطايرت دونه الحيل . نشدت شورى الأحبة ، ولجأت إلى أهل الله من العارفين والواصلين ، وطافت بالأضرحة المباركة ، حتى الأطباء زارتهم ولكنهم أصدروا فتوى غير مبشرة شملت الزوجين معا عم محسن وست عنباية وقالوا إن الأمل الباقى أضعف من أن يذكر . ووقفت فى سماء النعيم الصافية غمامة حزن مترعة بالحسرة لا تريد أن تتزحزح . ولما شارف عم محسن الخامسة والأربعين وست عنباية الأربعين تلقيا من الله رحمة . هتفت ست عنباية بعد تدقيق وعناية « يا ألطاف الله !.. إنى حامل

وحق سيدى الكردى !» . كان عم محسن أول من طرب وشكر . وتردد الخبر فى الوايلية على حدود العباسية حيث يوجد بيت الأسرة ومحل العطارة . وانقضت الأشهر التسعة فى انتظار بهيج ، وجاء المخاض يهزج بـالأنين السعيد . ولما تلقت الحكيمة الوليد حملقت فيه مذهولة مبهوتة . وراحت تبسمل وتحوقل . وهرعت إلى الصالة الشرقية الوثيرة فوقفت أمام عم محسن مضطربة حتى تمتم الرجل خافق القلب :

ــ ربنا يلطف بنا ، ماذا وراءك ؟

همست بعد تردد :

ــ مخلوق عجيب يا عم محسن ..

ــ كيف ؟

ــ أسفله موحد وأعلاه يتفرع إلى اثنين !

ــ لا !.

ــ تعال انظر بنفسك .

ــ وكيف حال الست ؟

ــ بخير ولكنها غائبة عما حولها !

وذهب فى أثرها مضطربا خائب الرجاء . وحملق فى المخلوق العجيب . رأى أسفله موحدا ذا رجلين وبطن واحد ، ثم يتفرع بعد ذلك إلى اثنين لكل منهما صدره وعنقه ورأسه ووجهه . وكانا يصرخان معا وكأن كلا منهما يحتج على وضعه أو يطالب باستقلاله الكامل وحريته الشرعية . هيمن على

الرجل شعور بالارتباك والحيرة والخجل وحدس المتاعب تتجمع فوقه كالسحب المليئة بالغبار . وترددت فى داخله العبارة التجارية التقليدية التى يحسم بها الموقف عند فشل صفقة من صفقات العطارة وهى « يفتح الله ». أجل ود لو فى الإمكان التخلص من هذه العاهة التى لن يذوق معها راحة البال . وقالت الحكيمة وهى مستغرقة فى عملها الروتينى :

ـــ صحة جيدة ، كأن كل شىء طبيعى تماما ..

فتساءل عم محسن خليل :

ـــ الاثنان ؟

فقالت الحكيمة بحيرة :

ـــ ليسا توأمين .. هذا وليد واحد !

فجفف الرجل عرق وجهه وجبينه المتصبب من داخله ومن جو الصيف وتساءل :

ـــ ولم لا نعتبرهما اثنين ؟

ـــ كيف يكونان اثنين على حين أن انفصال جزء عن الجزء الآخر مستحيل !

ـــ إنها مشكلة ، ليتها لم تكن أصلا !

فقالت الحكيمة بلهجة وعظية :

ـــ إنه منحة من الله على أى حال ولا يجوز الاعتراض على حكمته ..

فاستغفر الرجل ربه فواصلت الحكيمة :

ــ سأسجله باعتباره واحدا .

فتنهد عم محسن قائلا :

ــ سنصبح أحدوثة ونادرة !

ــ الصبر جميل !

ــ ولكن ألا يستحسن اعتباره اثنين ذوى بطن واحد ؟

ــ لا يمكن أن يتعامل مع الحياة إلا كشخص واحد .

وتبادلا النظر صامتين حتى سألته :

ــ ماذا تسميه ؟

ولما لازم الصمت تساءلت :

ــ محمدين !.. ما رأيك فى هذا الاسم المناسب ؟

فهز رأسه مستسلما دون أن ينبس . ولما انتبهت ست عنباية لما حولها صعقت . وبكت طويلا حتى احمرت عيناها الجميلتان . وشاركت زوجها عواطفه . غير أن ذلك لم يستمر طويلا فاستجابت ست عنباية فى النهاية إلى عاطفة الأمومة وعم محسن للأبوة . وراحت ترضع الأيمن فما سكت البكاء حتى أرضعت الأيسر . وبعفوية جعلت تنادى الأيمن بقسمتى والأيسر بنصيبى فمنذ الأسبوع الأول عرف الوليد باسمين . وتميز كل بفردية فربما نام قسمتى وظل نصيبى صاحيا يتناغى أو يبكى أو يرضع . ومع الزمن خفت الدهشة وإن لم تخف أصداؤها فى الخارج ، وألفت الغرابة ، وزالت الوحشة . ونال قسمتى ونصيبى حظهما الكامل من الرعاية والحب

والحنان . ومضت الأم تقول للزائرات من أهلها :

— ليكن من أمره ما يكون فهو ابنى ، أو هما ابناى .

واعتاد الحاج محسن — فقد أدى الفريضة بعد التجربة — أن يقول :

— لله حكمته !

وعلم بفطرته أن الطفولة ستمر كدعابة ولكنه فكر فى المستقبل بقلق واختناق . أما ست عنباية فاستغرقتها متاعبها المضاعفة . كان عليها أن ترضع اثنين ، وأن تنظف اثنين ، وأن تربى اثنين . وأن تملك أعصابها إذا نام أحدهما واحتاج للهدوء وصحا الآخر ورغب فى الملاعبة . واختلفت بقدرة قادر صورتاهما ، فبدا قسمتى عميق السمرة رقيق الملامح عسلى العينين ، أما نصيبى فكان ذا بشرة قمحية وعينين سوداوين وأنف ينذر بالضخامة . وأخذ الوليد يحبو على قدمين وأربع أيد ، وينطق كلمة بعد أخرى ، ويحاول المشى . ولوحظ أن قسمتى كان أسرع فى تعلم النطق ولكنه كان يذعن لمشيئة نصيبى فى الحبو والمشى ، وفى العبث بالأشياء وتحطيمها . لبثت القيادة طيلة تلك الفترة المبكرة بيدى نصيبى واتسمت بالعفرتة والتدمير ومطاردة الدجاج وإيذاء القطط ، غير أن خضوع قسمتى لنصيبى أعفاهما من الشجار عدا الأويقات النادرة التى كان يميل فيها قسمتى للراحة فلا يتورع نصيبى عن لكزة بكوعه حتى يسترسل فى البكاء . ولما بلغا الرابعة من العمر وجاوزاها ، أخذا ينظران إلى الطريق من النافذة ويشاهدان الأطفال ، ويرفعان أعينهما نحو السماء من فوق السطح فانهمرت الأسئلة مع اللعاب :

ــ كل ولد ذو رأس واحد ، لماذا ؟

فتجيب ست عنباية مرتبكة :

ــ ربنا يخلق الناس كما يشاء ..

ــ دائما ربنا .. ربنا .. أين هو ؟

فيجيب عم محسن :

ــ هو يرانا ونحن لا نراه وهو قادر على كل شيء ، والويل لمن يعصاه !

ويحدثهما الرجل عما يجب ليحوزا رضاه فيخاف قسمتى ويقول نصيبى لقسمتى :

ــ اسمع كلامى أنا وإلا ضربتك ..

ويريان القمر فى ليالى الصيف فيمدان نحوه أيديهما . يتنهد قسمتى مغلوبا على أمره ويثور نصيبى غاضبا . ويتساءل الحاج :

ــ هل نحبسهما فى البيت إلى ما شاء الله ؟

فتقول ست عنباية :

ــ أخاف عليهما عبث الأطفال ..

وقرر الحاج أن يقوم بتجربة فجلس أمام البيت على كرسى خيزران وأجلسهما إلى جانبه على كرسى آخر . سرعان ما تجمع الصغار من مختلف الأعمار ليتفرجوا على المخلوق العجيب ولم ينفع معهم زجر أو نهر حتى اضطر الرجل أن ينسحب من مجلسه وهو يحملهما على ذراعه ، وتمتم فى أسى :

ــ بدأت المتاعب .

ولكن الله فتح على ست عنباية بفكرة فاقترحت أن تقنع جارتها بإرسال ابنها طارق وبنتها سميحة للعب مع محمدين . ووافقت الجارة مشكورة فجاء طارق وسميحة ، وكان طارق أكبر من محمدين بعام أما سميحة فكانت تماثله فى عمره . وقد فزعا أول الأمر ونفرا من الصحبة غير أن ست عنباية استرضتهما بالهدايا حتى زايلتهما الوحشة وجرفهما حب الاستطلاع والمغامرة ، وسعد قسمتى ونصيبى بالرفيقين الجديدين ، وأحبا حضورهما حبا فاق كل تقدير ، رغم أنه لم يفز بحب فى مثل قوته . وتنوع الحديث واللعب وابتكرت الحكايات . وجدت الكرة الصغيرة من يتبادل رميها ، ووجد الحبل من يتصارع على شده ، وباتت سميحة هدفا ورديا كل يرغب فى الاستحواذ عليه ، وكل يدعوها إلى الجلوس إلى جانبه إذا جمعهم التلفزيون . وبسبب سميحة نشبت بينهما أول معركة حقيقية على ملأ من الأسرة ، فدميت شفة نصيبى وورمت عين قسمتى . وبها تحرر قسمتى من الذوبان فى نصيبى وأخذ يشعر بأنه فرد بإزاء آخر فتبادلا من الآن فصاعدا التوافق كما تبادلا التنافر . وقال الحاج ذات يوم :

ــ جاءت السن المناسبة للمدرسة ..

فتجهم وجه عنباية وارتسم فى أساريره الشعور بالذنب فقال الحاج :

ــ إنه باب مغلق !

وتفكر مليا ثم قال :

سأجيء لهما بالمعلمين ، يجب أن يعدا على الأقل ليحلا محلى فى الدكان ..

وجاء المعلمون ، ولقنوهما مبادئ الدين واللغة والحساب .واستجاب قسمتى للتعلم بدرجة مشجعة أما نصيبى فبدا راغبا عن العلم متعثرا فى الفهم والاستيعاب ، ومن أجل ذلك حنق على الآخر ، وكدر ساعات مذاكرته بالعبث والغناء والمعاكسات الصبيانية ، وبدا الخلاف مزعجا فى تقبل التربية الدينية التى أقبل عليها قسمتى بقلب مفتوح على حين وقف فيها نصيبى موقف اللامبالاة . وضاعف زجر المدرس من عناده ، ونهره أبوه كثيرا ولكنه أشفق من ضربه . وعند بلوغ الثامنة أراد قسمتى أن يصلى ويصوم . ومع أن نصيبى لم يمل إلى ذلك إلا أنه وجد نفسه يشارك بقدر لا يستهان به فى الوضوء، وأنه يرغم تقريبا على الركوع والسجود . ولشعوره بضعف مركزه أذعن للواقع وهو يمتلئ حنقا وغيظا . وأمره أبوه بالصيام ، وحاول أن يشبع جوعه فى الخفاء ولكن قسمتى احتج قائلا :

ـــ لا تنس أن بطننا واحد ، وإذا تناولت لقمة واحدة أخبرت أبى ..

وصبر يومه حتى نفد صبره فبكى فرقت له أمه وقالت للحاج :

ـــ الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، دعه حتى يكبر عاما أو عامين ..

فقال الأب فى حيرة :

ـــ ولكنه إذا أفطر أفطر الآخر !

وهى مشكلة لم يحلها إلا إمام سيدى الكردى فقال إن العبرة بالنية وأن صيام قسمتى صحيح حتى لو أفطر نصيبى . وصام قسمتى رغم إفطار

نصيبى مستندا إلى نيته أولا وأخيرا . وتوكد لكل شخصيته ، وحال بينهما نفور دائم آخذ فى الاستفحال ، وندرت بينهما أوقات الصفاء . وقالت الأم بعين دامعة :

ـــ يا ويلى ، لا يطيق أحدهما الآخر ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر ، فكيف تمضى بهما الحياة ؟!

مضت على الشوك ، وشمل الخلاف أشياء وأشياء . قسمتى يحب النظافة ونصيبى يكره فكرة الاستحمام إلا أن يضطر إليه اضطرارا ، وتوسط الوالدان على أن ينزل قسمتى عن شىء من النظافة نظير أن ينزل نصيبى عن كثير من القذارة . ونصيبى نهم لا يشبع فكثيرا ما كان يصاب قسمتى بالتخمة . ولقسمتى ولع بالأغانى العاطفية على حين يعشق نصيبى الأناشيد الصاخبة . أما ذروة الخصام فقد احتدمت لحب قسمتى النامى للقراءة والاطلاع ، يحب أن يقرأ كثيرا والآخر يفضل اللعب فوق السطح ومعاكسة السابلة والجيران . ونصيبى يمكن أن يصبر ساعة على انهماك الآخر فى القراءة ولكنه عند الضرورة يعرف كيف يفسد عليه تركيزه واستغراقه حتى يشتبكا فى معركة تسفر عادة عن انتصار نصيبى . وقال له قسمتى مجربا المناقشة بدلا من العنف غير المجدى :

ـــ لى هواياتى ولك هواياتك ولكن هواياتى أنسب لظروفنا غير الطبيعية ..

فقال نصيبى بحدة :

ـــ معَنى ذلك أن تتحول الحياة إلى سجن دائم .

ـــ لكن لا نصيب لنا فى الدنيا الخارجية .

ـــ السعادة فى الدنيا والكآبة فى الحجرة .

فقال قسمتى :

ـــ إنك تعاكس الناس فينهالون علينا بالسخرية .

ـــ أموت لو فعلت غير ذلك .. بل إنى أفكر فى اقتحام الطريق ..

ـــ ستجعل منا أضحوكة وفرجة ..

فصاح نصيبى :

ـــ إنى أكره السجن وأحسد النجوم ..

فقال قسمتى برجاء :

ـــ يلزمك الكثير من العقل ..

فقال نصيبى بازدراء :

ـــ لا سبيل إلى الاتفاق .

ـــ لكننا واحد كما ترى رغم أننا اثنان !

ـــ هذه هى المصيبة ولكن عليك أن تذعن لى دون مقاومة ..

ـــ إنك عنيد وتحب الخصام ..

ودعاهما الوالدان إلى الاجتماع فى حجرة المعيشة . حقا إنهما فقدا الشعور براحة البال وتنغص عليهما صفوهما . وآمنا بأن كارثة ستحل بالبيت إن لم يسارعا إلى حسم الداء . قبلتهما عنباية وقالت :

ـــ فليحب أحدكما الآخر ، إن وجد الحب تلاشت المشاكل !

فقال نصيبى :

ـــ هو الذى يكرهنى !

ولكن قسمتى بادره قائلا :

ـــ بل أنت الذى تكرهنى !

فقالت ست عنباية متأوهة :

ـــ إنكما اثنان فى واحد لا يتجزأ ولا بد من الحب ..

وقال الحاج محسن خليل :

ـــ الحكمة تطالبكما بالوفاق وإلا انقلبت الحياة جحيما لا يطاق ، ذوبان أحدكما فى الآخر مرفوض ، والوفاق ممكن ، فليصبر نصيبى عندما يرغب قسمتى فى القراءة ، وفى مقابل ذلك على قسمتى أن يرحب بالحركة واللعب مع نصيبى ، وليكن كل غناء مقبولا ليستمتع كل بأغانيه المفضلة ، أما الدين فلا مناقشة فيه ..

فقال قسمتى :

ـــ إنى على استعداد طيب للوفاق رغم ما يكلفنى من ضيق ..

ولاذ نصيبى بالصمت فرجع قسمتى يقول :

ـــ إنه لا يحب الوفاق ، ولا يعد نفسه ليوم تدعونا فيه إلى العمل فى الدكان !

فقال الأب بحزم :

ــ لا بد مما ليس منه بد !

وعادت ست عنباية تقول بحرارة وضراعة :

ــ عليكما بالحب ففى رحمته النجاة ..

ولكن الوالدين لم يصف لهما بال . وتابعا ما يحدث بقلق وأسى . وبذل نصيبى فى سبيل الوفاق جهدا مترددا لغلبة الأهواء الجامحة عليه على حين مضى قسمتى فى الطريق الجديد بإرادة أقوى ورغبة أنقى مستأنسا بعواطفه الصادقة وميله المخلص لوضع حد لعذاباته ، ومستعينا عند الضرورة بوالديه . ولما ناهزا الحلم وشارفا المراهقة تصاعدت أزمتهما إلى الذروة . احتدمت الأحلام المكبوتة منذرة بالانفجار . وتبلورت لكل منهما ذاتية مستقلة فبدا الآخر غريبا مهددا للأمن ، وعدوا يجب أن يقهر . ضاق كل منهما بالرابطة القدرية التى فرضت عليهما وحدة كريهة لا فكاك منها . وتلاطما فى دوامة من الانفعالات المحرقة الجنونية . وفارت من الأعماق موجة عمياء جرفت ستر الحياء ، فارتطم الاندفاع بالندم ، واشتعل الغضب فانخرط الاثنان فى معركة وتبادلا الضربات القاسية . وهمدت الحركة غائصة فى الصمت والشجن . استمرت فترة غير قصيرة إلى أن قال قسمتى :

ــ إنها لعنة لا يمكن أن تمضى معها الحياة فى سلام ..

فقال نصيبى بهدوء عنيد :

ــ لكنها ستمضى فى طريقها على أى حال !

فأظلمت عينا قسمتى العسليتان وقال :

ــ قضى علينا بالحرمان من الانسجام الذى تحظى به جميع المخلوقات ..

ــ إنك مريض ذو أفكار مريضة ..

فقال قسمتى بسخرية :

ــ أحدنا مريض ولا شك !

فقال نصيبى بتحد :

ــ لن أنزل عن حق من حقوق .. فلا مهادنة بعد الآن ..

ــ لى أيضا حقوق ..

وتبادلا نظرة متحدية وبائسة ، فانقطعا عن الحوار على أسوأ حال . وفى ذلك الوقت رأيا سميحة ــ زميلة الطفولة ــ بعين جديدة . كانا يريانها من النافذة وهى تذهب وتجىء منفردة أو بصحبة أمها فتوقظ ذكرى عابرة ثم تختفى . أما ذلك اليوم فرأياها بعين جديدة . رأياها وقد أنضجتها شعلة الصبا فأضفت عليها بهاء وأثرتها بشهد الرغبة . أترع قلب قسمتى برحيق الفتنة فثمل على حين جن نصيبى بالأخيلة الجامحة . تلقى قلب قسمتى شعاع الحسن كما يتلقى البرعم شعاع الشمس فيتفتح . تمنى لو تحل محل نصيبى من وجوده التعيس ، ولأول مرة يشعر بأن نصيبى ليس قيدا فحسب ولكنه سد منيع فى طريق السعادة الحقيقية . أما نصيبى فظل رأسه يتحرك فى اضطراب ، ولما وجد الفتاة واقفة قريبة من مدخل بيتها تنتظر اندفع إلى الطريق جارا معه قسمتى . مرق من الباب إلى الطريق فرأته سميحة فتراجعت

مبتعدة باسمة . ولكنه اندفع نحوها مسددا يديه إلى صدرها ففزعت ووثبت داخلة إلى بيتها . ولفتت الهجمة الحيوانية أنظار بعض المارة فى شارع الوايلية ولكن قسمتى رجع إلى بيتهم بسرعة وهو يسب ويلعن والآخر مستسلم له بعد إفاقة مباغتة . وغضب قسمتى وصاح به :

— إنها فضيحة وما أنت إلا مجنون ..

فلم يجبه نصيبى مغلوبا على أمره . وعلمت الأم بما حدث فجزعت ، ولما عرفت الحقيقة من قسمتى قالت للآخر :

— ستهلك نفسك ذات يوم ..

فهتف قسمتى :

— وسوف يهلكنى معه دون ذنب ..

فقال نصيبى بجرأة :

— نحن فى حاجة إلى زوجة !

فبهتت الأم ولم تدر ماذا تقول فواصل نصيبى :

— كما ولدتنا فإنك مسئولة عن تزويجنا من بنت الحلال ..

فقال قسمتى :

— لن توافق بنت على الزواج من اثنين !

فقال نصيبى بتحد :

— ابحثى لنا عن زوجتين :

فقال قسمتى بحزن :

ـــ قضى علينا أن نعيش وحيدين !

فقال نصيبى :

ـــ فلنعتبر شخصا واحدا كما نحن مسجلون فى دفتر المواليد .

فقال قسمتى بأسى :

ـــ شخص للفرجة لا للزواج ..

واضطرت الأم أن تغادر الحجرة وهى تقول :

ـــ قد يكون عند الحاج حل !

وثار غضب نصيبى ، وقال للآخر :

ـــ لا حل إذا لم نعثر عليه بأنفسنا ، فلننتظر حتى ينتصف الليل ويندر المارة ثم ننطلق فى الظلام وراء أى صيد يقع .

فهتف نصيبى :

ـــ خيال جنونى ..

ـــ لا تكن جبانا .

ـــ لا تكن مجنونا .

وقال الحاج محسن لزوجته :

ـــ لم يغب عنى هذا الموضوع ، ولكن لا توجد أسرة ترضى بمصاهرتنا ..

ـــ والحل ؟

فقال الرجل وصوته يخفض .

ـــ ستجيء امرأة مسكينة فى الحلقة الخامسة لتقوم على خدمتهما !

وجاءت امرأة تعيسة الحال والمنظر ، نشطوا إلى تغذيتها وتنظيفها لترضى بما يراد بها . وأعقب ذلك سكون ظاهرى على الأقل ، أما فى الواقع فإن نصيبى كان يسىء معاملة المرأة نهارا كتعويض عن اندفاعه الليلى ، وأما قسمتى فبدا كئيبا مشمئزا ، وسأل الآخر :

ـــ ما ذنبى أنا ؟

فنهره نصيبى متسائلا :

ـــ وهل الذنب ذنبى ؟!

لم يحر جوابا لكنه تذكر سميحة بقلبه المسلوب ، وعواطفه المتأججة المحرومة فتضاعف أساه . والحق أن كليهما شعر بالضياع والهوان ، ولكن لم يشعر أحدهما بتعاسة الآخر ، وعلى العكس اتهمه بأنه المسئول عن مأساته ، وود لو يتخلص منه بأى ثمن . ودعاهما الأب للعمل فى الدكان ولو كتجربة لا مفر من ممارستها . كان يوم حضورهما فى الدكان يوما معتدل المناخ من أيام الربيع . تجليا للأعين فى بنطلون رمادى ، وقميصين أبيضين نصف كم أما شعر رأسيهما فاستوى مشذبا متوسط الطول . وقفا وراء الطاولة مرتبكين . وسرعان ما تجمع كثيرون ما بين زبون ومتفرج حتى ازدحم الطريق إلى نصفه . وقال الحاج موجها خطابه لابنيه :

ـــ استغرقا فى العمل ولا تباليا بالناس ..

ولكن الغضب تملك نصيبى على حين دمعت عينا قسمتى . وإذا بمصور

صحفى يشق طريقه بين الجموع ويلتقط العديد من الصور لمحمدين أو قسمتى ونصيبى . وفى النصف الثانى من النهار جاء مندوب من التلفزيون يستأذن فى إجراء حوار مع الشابين ، ولكن الحاج رفض بحزم وبنبرة شديدة الغضب . وبنشر الصور فى الصحيفة الصباحية اشتد إقبال الناس وهبط البيع للدرجة الدنيا ، فاضطر الحاج محسن خليلى لمنعهما من الذهاب إلى الدكان ، وقال لامرأته بقلب محزون :

ـــ سوف تصفى التجارة عقب انتهاء الأجل ..

وعند ذاك تساءل نصيبى غاضبا :

ـــ لم لم تتخلص منا عقب ولادتنا ؟. لم لم ترحمنا وترحم نفسك ؟.

فقال الحاج فى تأثر شديد :

ـــ لن تعرفا الضيم أبدا . وسترثان ما يحقق لكما الستر والكرامة .

فهتف نصيبى :

ـــ لا قيمة للمال وحده ، الواقع أننا ميتان ، كم تمنيت أن أمارس التجارة وأبتاع سيارة وأتزوج من أربع !

وقال قسمتى فى حسرة :

ـــ وعندى الاستعداد لأكون أستاذا .. وأمارس السياسة أيضا ..

ونظر نصيبى إلى قسمتى وقال بحنق :

ـــ إنك العقبة التى تسد طريقى ..

فقال قسمتى بإصرار :

ــ أنت أنت العقبة ..

فتساءل الحاج :

ــ ألا تسلمان بالواقع وتسعيان إلى السعادة معا ؟

فقال قسمتى :

ــ لو خلقنا برأس وأسفلين منفصلين لهان الأمر !

فقال الحاج برجاء :

ــ لن تعز السعادة على من ينشدها بصدق ..

فقال قسمتى بحنق :

ــ هذه السعادة هى سبب تعاستنا !

ثم التفت نحو نصيبى قائلا :

ــ تخل عن عنجهيتك واتبعنى تبلغ أقصى درجات الرفعة والسعادة ، أما لو تبعتك أنا فيكون مصيرنا السجن ..

فقال نصيبى ساخرا :

ــ محاولة خائبة لن تنجح . نحن مختلفان تماما ، أنا لا أحب المعرفة ، أما السياسة فإنك إن اخترت الحكومة اخترت من فورى المعارضة والعكس بالعكس ، لن أتبعك ولن تتبعنى ، ولن تهدأ المعركة ..

فقال الأب بنفاد صبر :

ــ ارجعا إلى الوفاق ، لا مفر منه ، إنه قدر ، كما أن اتحادكما قدر ..

وعادا كارهين إلى المحاولة . تجنبا الخلاف ما استطاعا ، وجارى كل

الآخر رغم تقزز قسمتى الخفى وسخرية نصيبى بعيدا عن عينى صاحبه . بدوا صديقين بلا صداقة ، متحالفين بلا إخلاص ، فعاش كل منهما نصف حياة ، وتعلق بنصف أمل . غير أن آثار العمر طبعت فى وجه نصيبى قبل الأوان ، وتوكد أنه يسرع نحو شيخوخة مبكرة . لعله نتيجة لإفراطه فى كل شىء . وراح يشكو من فتور فى الجنس وحساسية من الشراب ، وسوء الهضم . ولم تنفعه العطارة ولا الطب . وفى معاناته أعلن ما يخبئ من حنق على صاحبه فاتهمه قائلا :

ــ حسدتنى عليك اللعنة ..

فتسامح معه قسمتى متمتما :

ــ سامحك الله !

فصاح به :

ــ لن تشمت بى ، إذا مت فستحمل جثتى إلى نهاية العمر وتتحول من بشر إلى قبر !

واشتد به الضعف حتى ركبه الخوف من الموت . ورق له قسمتى فى تدهوره فشجعه قائلا :

ــ سترجع إلى خير مما كنت !

فلم يحفل بقوله ولم يصدقه . وذات صباح صحا مبكرا وهتف :

ــ إنى ذاهب إلى موطن الحقيقة الباكية !

وهرولت إليه ست عنباية فأدركت أنه يحتضر فأخذته فى حضنها

وراحت تتلو الصمدية وانتفض صدره ، وبكى قسمتى أيضا ولكن سرعان ما غشاه الفزع من الموت المزروع فى جذعه ، وتبادل الوالدان نظرة حائرة . ماذا يفعلان بهذه الجثة التى لا يمكن دفنها ؟. واستدعى طبيب على عجل فتفحص الحال وقال :

ـــ إنها مشكلة تتضمن مشكلات ، ولكن لا حل إلا تحنيطه إذ لا يمكن فصله ..

هكذا عاش قسمتى حاملا جثة صاحبه المحنطة . أدرك من اللحظة الأولى أنه سيعيش نصف حى ونصف ميت . وأن الحرَية التى حظى بها ، والتى طالما تمناها ، ليست إلا وهما ، وأنها نصف موت أو موت كامل . أجل قرر أن يهب نفسه للعمل طيلة الوقت بعد أن زال العائق ولكنه اكتشف أنه شخص جديد آخر . ولد الشخص الجديد فجأة وبلا تدرج . شخص فتر حماسة ، وجفت ينابيعه ، وتلاشت همته ، وخمد ذوقه . شخص جفا الحياة والعبادة والمسرات اليومية البريئة . شخص يعيش تحت سماء ماجت بالغبار فلا زرقة ولا سحب ولا نجوم ولا أفق . وقال بأسى عميق :

ـــ الموت فى الكون ..

ورئى طوال الوقت صامتا واجما شبه نائم فسألته أمه :

ـــ ألا تسلى نفسك بفعل شىء ؟

فأجابها :

ـــ إنى أفعل ما فى وسعى ، إنى أنتظر الموت ..

وبدا لعينيه أن الظلام يهرول نحوه واعدا بالسلام .

العين والساعة

حدث ذلك فى آخر ليلة لى فى البيت القديم . أو الليلة التى تم الاتفاق على أنها ستكون الأخيرة . والبيت ذو شخصية منفردة رغم قدمه ، وغربته الواضحة فى محيط العصر . بات وكأنه أثر من الآثار ، وأكد ذلك موقعه المطل على ميدان ولد مع القاهرة فى عام واحد . نشأنا فيه بحكم الميراث ، ثم حال الجفاء بيننا وبينه بحكم تنافر الأجيال ، فتطلعنا إلى الأجواء الحديثة الباهرة بعيدا عن الجدران الحجرية المغروسة فى الأزقة الضيقة . كنت جالسا فى الصالة المعصرانية الواسعة على أريكة طاعنة فى السن تقرر الاستغناء عنها تحت منور محكم الإغلاق اتقاء لنزوات الخريف . وكنت أحتسى قدحا من القرفة رانيا إلى إبريق نحاسى صغير قائم على خوان بين يدى ، يبرز ما فيه عود بخور جاوى يحترق على مهل نافثا خيطا من الدخان الطيب وهو يتماوج ويتأود تحت ضوء المصباح فى صمت الوداع ، واعترى ارتياحى فتور لغير ما سبب ثم غمرنى شجن خفى . شحنت عزيمتى للمقاومة ولكن الحياة كلها تجمعت أمام عينى فى التماعة خاطفة مثل كرة من نور منطلقة بسرعة كونية ، سرعان ما انطفأت واهبة ذاتها للمجهول غائصة فى جوفه الأبدى .

قلت لنفسى إنى على دراية بهذه الألاعيب ، وإن الرحيل العارض المقرر غدا يذكرنى بالرحيل الأخير عندما يرفع الحادى عقيرته مرددا النشيد

الأخير . وجعلت أتسلى عن أحزان الوداع بتخيل المقام الجديد فى الشارع العريض تحت أغصان البلخ الملتحمة والحياة الجديدة الواعدة بمسرات أنيقة لا حصر لها ، وما كادت القرفة تستقر فى جوفى حتى وثبت وثبة عملاقة مباغتة انتقلت بها من حال إلى حال ، فمن أعماقى تصاعد نداء يدعو بثقة لا حد لها إلى فتح الأبواب وكشف الحجاب وغزو الفضاء واقتناص الرضى والسماح من جنبات الجو المعبق بالبخور . انجابت الهموم والأشجان وخواطر الفناء . وانهمرت سيول مترعة بالنشاط والهيام والطرب . وانتفض القلب فى رقصة رائعة موحية بالإيهام والجذل . وشع نور فى الباطن فتجسد فى مثال . وقدم كأسا طافحة وقال بصوت عذب « تلق هدية معجزة » توقعت أن سيحدث حدث . وقد حدث . ذابت الصالة فى العدم وحل محلها فناء واسع يترامى حتى يفصل بينه وبين الميدان جدار غليظ أبيض ، غطته دوائر وأهلة مغشوشبة ، وتوسطته بئر ، وعلى مبعدة يسيرة منها نخلة فارعة ، وتحيرت بين إحساسين ، إحساس يقول لى إننى أرى مشهدا لم تسبق لى رؤيته ، وآخر يقول لى إنه ليس بالغريب وإننى أراه وأتذكره معا . حركت رأسى بعنف لأحضر إن كنت غائبا ، ولكن المشهد ازداد وضوحا وسيطرة وتمثل لى بين البئر والنخلة بشر ! إنه شخصى أنا رغم استخفائى فى جبة سوداء وعمامة عالية خضراء ، وهذا وجهى رغم لحيته المسترسلة . حركت رأسى مرة أخرى ولكن المشهد ازداد وضوحا ويقينا ، حتى لون الوقت الأسمر أشار إلى المغيب المغترب ، وتمثل أمامى — بين البئر

والنخلة ــ كهل يماثلنى فى الزى ، رأيته يناولنى صندوقا صغيرا ويقول :

ــ إنها أيام غير مأمونة ، يجب إخفاؤه تحت الأرض حتى تعود إليه فى حينه .

فسألته :

ــ ألا يحسن أن أطلع عليه قبل إخفائه ؟

فقال بحزم :

ــ لا .. لا .. قد يحملك ذلك على التسرع فى التنفيذ قبل مضى عام فتهلك !

ــ أعلىّ أن أنتظر عاما ؟

ــ دون نقصان ، ثم أطع ما يمليه عليك ..

وصمت لحظة ثم واصَل محذرا :

ــ إنها أيام غير مأمونة ، وقد يتعرض بيتك للتفتيش ، فيجب إخفاؤه فى الأعماق ..

وقام الاثنان بالحفر على كثب من النخلة ، ودفنا الصندوق ، ثم أهالا عليه التراب ، وسويا السطح بعناية ، ثم قال الكهل :

ــ أتركك للعناية الإلهية .. كن حذرا ، إنها أيام غير مأمونة ..

وعند ذاك تلاشى المشهد فكأنه لم يكن ، رجعت صالة البيت القديم وما زال فى عود البخور بقية ، ورحت أفيق من نشوتى بسرعة وأرتد إلى الواقع بكل كثافته، وغلبنى الانفعال والتأثر طويلا. ترى أكان وهما ما رأيت ؟

هذا هو التفسير الجاهز ولكن كيف آخذ به وأنسى المشهد المجسد الذى نفث اليقين بكل أبعاده ؟ لقد عشت واقعا ماضيا لا يقل فى صلابته عن الواقع الراهن ، رأيت نفسى أو أحد جدودى وجانبا من عصر انقضى ، لا يجوز أن أشك فى ذلك وإلا شككت فى عقلى وحواسى ، لا أدرى بطبيعة الحال كيف حدث ذلك ولكنى أدرى أنه حدث . وثمة سؤال غزانى بعنف : لماذا حدث ما حدث ؟. ولماذا حدث فى هذه الليلة الأخيرة لى فى البيت القديم ؟. وفى الحال شعرت بأننى مطالب بعمل شىء ما . شىء لا مفر منه . وترى هل استخرج « الآخر » الصندوق بعد مضى العام وصنع ما يشير عليه به ، هل نفد صبره فتسرع فهلك ؟ هل انقلبت عليه خطته بسبب تلك الأيام غير المأمونة ؟! يا لها من رغبة آسرة فى المعرفة لا يمكن مقاومتها !. وخطر لى خاطر غريب وهو أن الماضى لم يتمثل لى إلا لأن « الآخر » حيل بينه وبين الصندوق وأنى مدعو لاستخراجه وتنفيذ ما يشير به بعد إهمال طال واستطال أمدا غير معروف . إنه يأمرنى بألا أهجر البيت القديم لكى أعمل بكلمة قديمة مجهولة آن لها أن تتحقق . ومع أن الموقف كله تسربل بغشاء منسوج من الأحلام ، متنافر تماما مع العقل ، غير أنه هيمن علىّ بقوة طاغية فامتلأ القلب بأشواق التطلع والانتظار وآلامهما الجامعة بين الترقب والعذوبة . ولم أنم من الليل ساعة واحدة ، وظل خيالى يجوب أرجاء الزمان الشامل للماضى والحاضر والمستقبل معا ثملا بخمر الحرية المطلقة ، أمست فكرة الرحيل فى خبر كان . واستحوذت على نية التنقيب فى الماضى المجهول

(رأيت فيما يرى النائم)

لعلى أعثر على الكلمة التى طال رقادها ، ثم أتأمل ما ينبغى صنعه بعد ذلك .
وبالمقارنة بين المشهد البائد والمشهد الماثل لعينى ، قدرت أن موقع النخلة القديم يقوم فى موضع السلم الصغير الصاعد إلى المنظرة . وعليه فالحفر يجب أن يبدأ على مبعدة يسيرة منه فيما يلى شباك المنظرة ، اعترضتنى بعد ذلك مشكلة إخبار أخى وأختى بعدولى عن الرحيل بعد أن تم الاتفاق بيننا عليه .
وكنا لا نزال فى مرحلة التعليم الجامعى فأنا فى السنة النهائية بكلية الحقوق ، وأخى الذى يصغرنى بعام يدرس الهندسة ، وأختى التى تصغرنى بعامين تدرس الطب . احتج كلاهما على عدولى المفاجئ و لم يجدا له تفسيرا مقنعا وأصرا فى الوقت نفسه على الانتقال وحدهما غير يائسين من التحاقى بهما فى وقت قريب . وقبل أن يغادرانى ذكرانى بما اتفقنا عليه من عرض البيت للبيع للاستفادة من ارتفاع سعر الأراضى فلم أعارض بكلمة. هكذا افترقنا لأول مرة فى حياتنا وكنا نؤمن بأنه لن يفرق بيننا إلا الزواج أو الموت . و لم يبق إلا أن أشرع فى العمل . والحق أنى تهيبته أن يتمخض عن لا شىء ولكنى كنت مدفوعا بقوة لا تقبل التراجع . وعزمت على الحفر بنفسى ليلا فى حذر وكتمان ، واستعنت بفأس ومجرفة ومقطف واستغرقنى العمل بهمة لا تعرف الكلل . صبغنى التراب وملأ صدرى واستقر فى أنفى رائحة مترعة بالأسى والزمان الأول . وتواصل العمل حتى غصت فى الأعماق مقدار طولى كله ولا معين لى إلا شعورى الباطنى بأنى أقترب من الحقيقة . وضربت الفأس مرة فرجع صوتا جديدا واشيا بجسم جديد فخفق فؤادى حتى زلزلت

جذوره . رأيت الصندوق على ضوء شمعة يطالعنى بوجه أغبر لكنه حى . وكأنما يعاتبنى على طول تأخرى ، ويؤنبنى على ضياع العديد من السنين ، ويعلن استياءه على حبسه كلمة من حقها أن تعرف ، من ناحية أخرى تجسد لى حقيقة صلبة لا يدانيها شك . معجزة مجسدة ، صوتا يملأ الأسماع ، وانتصارا محققا على الزمن ، صعدت به إلى سطح الأرض ثم هرولت إلى الصالة ، حملت بين يدى الدليل الذى عبر بى من الحلم إلى الحقيقة هازئا بكافة المسلمات . نفضت عنه الغبار ، وفتحته ، فوجدت رسالة مطوية فى لفافة من كتان متهرئ ، بسطتها برفق وأنشأت أقرأ :

— يا بنى ليحفظك الله تعالى ..

مضى العام وعرف كل سبيله .

لا تهجر دارك فهى أجمل دار فى القاهرة فضلا عن أن المؤمنين لا يعرفون دارا سواها . ومأوى آمنا غيرها .

وقد آن الأوان لكى تلقى حامى الحمى مولانا عارف الباقلانى ، فاذهب إلى داره ، وهى الثالثة إلى يمين الداخل فى عطفة إرم جوز واذكر له كلمة السر وهى : إذا تغيبت بدا وإن بدا غيبنى .

بذلك تؤدى واجبك وتقبل عليك الدنيا وتنال ما يحب لك المؤمنون وفوق ما تحب لنفسك .

قرأت الرسالة مرات حتى حالت القراءة آلية لا معنى لها . أما قرينى القديم فلا علم لى بما آل إليه مصيره . لكن المؤكد أن الدار لم تعد أجمل دار

فى القاهرة ولا المأوى الآمن للمؤمنين ، ولم يعد لحامى الحمى عارف الباقلانى وجود ، فعلام كانت الرؤيا وعلام كان التعب ؟!. ولكن هل يمكن أن تقع معجزة بهذه القوة لغير ما سبب ؟!. أليس من الجائز أنها تطالبنى بالذهاب إلى الدار الثالثة بعطفة إرم جوز لتجود على بما لم يقـع لى فى تقدير ؟!. وهل أملك أن أصرف نفسى عن الذهاب إلى هناك مجذوبا بحب استطلاع نهم ورغبة تأبى أن تؤول معجزتى الفريدة إلى عبث عقيم ، ذهبت مستظلا بجناح الليل متأخرا عن ميعادى عدة مئات من السنين . وجدت الحارة خاشعة تحت ظلمة يلوح فى عمقها بصيص نور يشع من مصباح ، ولم أر من البشر إلا آحادا عبروا بسرعة نحو الطريق . جاوزت البيت الأول إلى الثانى وعند الثالث توقفت عن المشى . وملت نحوه كمن يسير فى حلم حتى تبين لى أنه ذو فناء صغير يقع وراء سور قصير وأنه لا يخلو من أشباح البشر ، وقبل أن أتراجع فتح الباب وخرج رجلان طويلان فى ملابس عصرية ، حصرانى بينهما فى حركة التفاف رشيقة ثم جاءنى صوت أحدهما قائلا :

ـــ ادخل لمقابلة من جئت لمقابلته ..

فقلت مأخوذا :

ـــ ما جئت لمقابلة أحد ولكنى أود أن أعرف اسم من يقيم فى البيت ..

ـــ حقا . لماذا ؟

فقلت وأنا أزيح عن صدرى انقباضه :

— أود أن أعرف إن كان المقيم هنا من آل الباقلانى .

فقال الرجل متهكما :

— دعك من الباقلانى وواصل رحلتك إلى نهايتها .

أفضى إلى قلبى بأنهما من رجال الأمن فخامرنى قلق وحيرة وقلت :

— لا توجد رحلة ولا مقابلة ..

— سوف تغير رأيك ..

وقبض كل منهما على ذراع ، وساقانى رغم مقاومتى إلى الداخل . انتزعت من الحلم ودفعت إلى كابوس ، وأدخلت إلى حجرة استقبال مضاءة يقف فى وسطها شخص فى جلباب أبيض والقيد الحديدى فى يديه ، ورأيت فى أنحاء الحجرة رجالا من نوع الرجلين اللذين ساقانى على رغمى ، وقال أحد الرجلين :

— كان قادما للاجتماع بصاحبه .

التفت رجل — حدست أنه رئيس القوة — إلى المقبوض عليه وسأله :

— أحد زملائك ؟

فأجاب الشاب بوجه متجهم :

— لم أره من قبل .

فنظر الرجل نحوى وسألنى :

— هل تردد الكلام نفسه أو توفر على نفسك وعلينا العناء ، وتعترف ؟

فهتفت بحرارة :

ـــ أحلف بالله العظيم على أنه لا علاقة لى بشىء مما تظنون .

فمد يده نحوى قائلا :

ـــ بطاقتك .

أعطيته البطاقة فقرأها ثم سألنى :

ـــ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

فأومأت إلى الرجلين وقلت متشكيا :

ـــ جاءا بى قسرا .

ـــ اقتنصاك من عرض الطريق ؟

ـــ جئت الحارة للسؤال عن الباقلانى .

ـــ ماذا يدفعك للسؤال عنهم ؟

فارتبكت وتحيرت وشعرت بالحذر الواجب أن يشعر به من يجرى تحقيق معه ، قلت :

ـــ قرأت عنهم فى التاريخ وأنهم كانوا يقيمون فى ثالث بيت إلى يمين الداخل إلى هذه الحارة .

ـــ دلنى على المرجع الذى قرأت فيه ذلك .

فغصت فى الحيرة أكثر و لم أحر جوابا ، فقال :

ـــ الكذب لا يفيد ، بل إنه يضر !

فتساءلت فى شبه يأس :

ـــ ماذا تريدون منى ؟

فقال بهدوء :

ـــ إنك ملقى القبض عليك للتحقيق .

فصحت :

ـــ لن تصدقونى إذا صارحتكم بالحقيقة .

ـــ ترى ما هى هذه الحقيقة ؟

تنهدت وفى ريقى تراب ، ثم أنشأت أقول :

ـــ كنت جالسا وحدى فى صالة بيتى ..

وأفشيت سرى تحت نظراتهم الصارمة الساخرة ، ولما انتهيت قال الرجل ببرود :

ـــ ادعاء الجنون لا يفيد أيضا .

فهتفت بشماتة وأنا أخرج الرسالة من جيبى :

ـــ إليكم الدليل ..

تفحصها مليا وهو يهمس لنفسه :

ـــ ورقة غريبة سنجلو سرها بعد قليل ..

وراح يقرأ السطور بعناية وشفته تنفرج عن بسمة هازئة ثم تمتم :

ـــ شفرة مكشوفة !

ثم نظر نحو صاحب الدار المقبوض عليه وسأله :

ـــ سيادتك عارف الباقلانى ؟، أهذا هو اسمك الحركى ؟

فقال الشاب باستهانة :

ـــ ليس لى اسم حركى ، وما هذا الغريب إلا أحد مرشديكم جئتم به لتلفقوا لى تهمة ولكنى خبير بهذه الألاعيب !

وتساءل أحد المعاونين :

ـــ ألا يستحسن أن نبقى لعل آخرين يأتون فيقعون فى الشرك ؟

فقال الرجل :

ـــ سننتظر حتى الفجر .

وأشار إلى الرجلين الممسكين بى إشارة خاصة فشرعا يضعان القيد الحديدى فى يدى غير مبالين باحتجاجى ، و لم أصدق المصير الذى انزلقت إليه . كيف يبدأ بمعجزة باهرة وينتهى بمثل هذه الوكسة ؟!. لم أصدق و لم أستسلم لليأس . أجل إنى أنغمس فى محنة حتى قمة رأسى ولكن الرؤيا لم تتجل لمحض العبث . على أن أعترف بخطئى الصبيانى وعلى أن أعيد النظر ، وعلى أن أناجى الوقت ..

وشملنا صمت ثقيل . تذكرت أخى وأختى فى الدار الجديدة ، والحفرة الفاغرة فى الدار القديمة ، وتراءى لى الموقف من خارجه ففرت منى ضحكة ، ولكن لم يلتفت لى أحد ، ولا خرج من الصمت .

الليلة المباركة

ما هى إلا حجرة وحيدة يتوسطها البار والرف المزين بالقوارير فى عطفة نورى المتواضعة والمتفرعة عن كلوت بك ، اسمها الزهرة ، ولكن يعشقها لحد الوله الشيوخ المدمنون ، وخمارها طاعن فى السن ، متماد فى الهدوء ، مؤثر للصمت ، غير أنه يشع مودة وأنسا ، وبخلاف الحانات تهيم فى سكينة رائعة ، وكان روادها يتناجون فى الباطن ويتحاورون بالنظرات ، وفى الليلة المباركة خرج الخمار عن صمته التقليدى وقال :

ـــ حلمت أمس بأن هدية ستهدى إلى صاحب الحظ السعيد ..

فشدا قلب « صفوان » بنغمة مصحوبة بعزف عود خفى فتدفقت موجات الخمر فى أرجائه كالكهرباء فهنأ نفسه قائلا « مباركة الليلة المباركة » . وغادر الخمار ثملا يترنح ، غائصا فى الليل الجليل تحت سماء خريف لم يخل من وميض نجوم . مضى نحو شارع النزهة مخترقا الميدان متألقا بنشوة لم يعتورها أدنى خمول . بدا الشارع خاشعا تحت ستار الظلام عدا أضواء المصابيح الرسمية المتباعدة ، بعد أن أغلقت الحوانيت أبوابها وركنت المساكن للنوم . ووقف أمام بيته ، وهو الرابع إلى اليمين ذو الرقم ٤٢ ، من دور واحد يتقدمه فناء قديم لم تبق من حديقته إلا نخلة فارعة . وعجب للظلام الكثيف الذى يحتويه . وتساءل لم لم تضىء زوجته مصباح الباب

الخارجى كالعادة ؟!. وخيل إليه أن شبح البيت يتبدى فى صورة جديدة ، جهمة غليظة موحشة وأن رائحة تفوح منه كالشيخوخة . ورفع صوته هاتفا :

ـــ يا هوه !..

فاستوى أمام عينيه وراء السور شبح رجل يسعل ثم يتساءل :

ـــ من أنت ؟.. وماذا تريد ؟..

فذهل صفوان لوجود الغريب وسأله بحدة :

ـــ من أنت ؟.. وماذا أدخلك بيتى ؟!

فقال الرجل بخشونة وغضب :

ـــ بيتك ؟

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا خفير الأوقاف .

ـــ لكن هذا بيتى ..

فصاح الرجل ساخرا :

ـــ هذا بيت مهجور من قديم تجنبه الناس لما يشاع عنه من أنه مسكون بالعفاريت ..

سلم بأنه ضل طريقه ، وهرول نحو الميدان ، وشمله بنظرة شاملة ، ثم رفع رأسه إلى لافتة الشارع ، وقرأ بصوت مرتفع « النزهة » ، ودخل هذه المرة وهو يعد البيوت عدا حتى بلغ الرابع . وقف مذهولا يكاد يجن . لم يجد

بيته ، ولا البيت المسكون ، ولكنه رأى أرضا فضاء ، خرابة ، مبسوطة بين البيوت ، وتساءل :

ـــ أفقدت بيتى أم فقدت عقلى ؟!

ورأى الشرطى قادما وهو يتفقد أقفال الحوانيت فاعترض سبيله وسأله وهو يشير نحو الخرابة :

ـــ ماذا ترى هنا ؟

فحدجه الشرطى بنظرة مستريبة وتمتم :

ـــ هذه خرابة كما ترى ، وتقام فيها سرادقات الموتى أحيانا ..

فقال صفوان :

ـــ كان يجب أن أجد مكانها بيتى ، تركته وفيه زوجتى وهى فى تمام الصحة والعافية عصر اليوم فقط . فمتى هدم وأزيلت أنقاضه ؟!

فدفن الشرطى ابتسامة طارئة فى عبوسة رسمية وقال له بخشونة :

ـــ اسأل السم الزعاف فى بطنك !

فقال صفوان بكبرياء :

ـــ إنك تخاطب مديرا عاما سابقا !

فقبض الشرطى على ذراعه ومضى به قائلا :

ـــ سكر وعربدة فى الطريق العام !

وسار به إلى قسم الظاهر على مبعدة يسيرة وأوقفه أمام الضابط فى حال تلبس ، ورثى الضابط لوقاره وسنه ، فقال :

— البطاقة ؟

وأخرج له بطاقته وهو يقول :

— إنى فى تمام وعيى ولكن بيتى لم يعد له أثر ..

فقال الضابط ضاحكا :

— سرقة من نوع جديد لا أدرى كيف أصدقها ..

فقال صفوان بقلق :

— ولكنى أقول الحقيقة ..

— الحقيقة مظلومة ولكنى سأعاملك برفق إكرما لسنك ..

ثم قال للشرطى :

— اذهب به إلى البيت رقم ٤٢ بشارع النزهة ..

وذهب به الشرطى ، وأخيرا وجد نفسه أمام بيته كما يعرفه ، ورغم سكره دهمه الحياء . وفتح الباب الخارجى ، وعبر الفناء ، وفتح الباب الداخلى ، وأضاء مصباح المدخل ، وعند ذاك بهت ، وجد نفسه فى مدخل لم تقع عليه عيناه من قبل لا صلة ألبتة بينه وبين مدخل بيته الذى عاش فيه حوالى نصف قرن حتى أبلى أثاثه وجدرانه . وقرر التراجع قبل انكشاف أمره فمرق إلى الطريق ، وقف يتفحص البيت من الخارج ، إنه بيته ، من ناحية الشخصية والموقع ، وقد فتح أبوابه بمفتاحه فلا منفذ إلى الشك فى ذلك ، فماذا غيره من الداخل ؟!. ثمة نجفة صغيرة بهيئة الشمعـــدان ، والجدران مورقة ، وسجادة جديدة ! من ناحية هو بيته ، ومن ناحية أخرى

هو بيت غريب . وماذا عن زوجته صدرية ؟!.

وقال بصوت مسموع :

ـــ إنى أشرب منذ نصف قرن فماذا حدث فى هذه الليلة المباركة ؟!

وخيل إليه أن بناته السبع المتزوجات ينظرن إليه بأعين دامعة ، ولكنه عزم أن يحل مشكلته بنفسه دون لجوءإلى السلطات وإلا عرض نفسه لسيف القانون ، واقترب من سور الفناء وراح يصفق بيديه ، وفتح الباب الداخلى عن شخص لم تتضح معالمه وجاءه صوت امرأة متسائلا :

ـــ ماذا يوقفك فى الخارج ؟!

خيل إليه أنه صوت غريب ، أو شك فى ذلك ، وتساءل :

ـــ بيت من من فضلك ؟!

فهتفت المرأة :

ـــ لهذا الحد ؟! .. لا .. لا ..

فقال بحذر :

ـــ أنا صفوان ..

ـــ ادخل وإلا أيقظت النائمين ..

ـــ أأنت صدرية ؟!

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله ، يوجد من ينتظروك فى الداخل ..

ـــ فى هذه الساعة ؟!

ـــ إنه ينتظر منذ العاشرة ..

ـــ ينتظرنى أنا ؟!

فتأففت بصوت مسموع . فتساءل :

ـــ أنت صدرية ؟!

فهتفت بنفاد صبر :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله !

وتقدم ، فى حذر أولا ثم باستهانة . وجد نفسه فى المدخل الجديد . ورأى باب حجرة الاستقبال مفتوحا والأضواء تنير الداخل بقوة أما المرأة فقد اختفت . ودخل حجرة الاستقبال فطالعته بمنظر جديد مثل المدخل . أين ذهبت الحجرة القديمة بأثاثها العتيق ؟! جدران حديثة الطلاء ، ونجفة كبيرة تتدلى منها فوانيس من طراز أسبانى ، وسجادة زرقاء ، وكنبة وثيرة وفوتيات مريحة ، فهى حجرة فاخرة ، وفى الصدر جلس رجل غريب لم يره من قبل ، نحيل غامق السمرة ذو أنف يذكر بمنقار الببغاء وفى بصره حدة ، ويرتدى بدلة سوداء رغم أن الخريف كان يسحب خطاه الأولى . بادره الرجل بضيق :

ـــ شد ما تأخرت عن ميعادنا !

فذهل صفوان وغضب فى آن وتساءل :

ـــ أى ميعاد ؟. من أنت ؟!

فهتف الرجل :

ـــ هذا ما أتوقعه ، النسيان !، صادق أو كاذب ، الشكوى نفسها ،

تتكرر كل يوم لا فائدة ، ولكن هيهات ..

فصاح صفوان بحدة :

ـــ ما هذا الهذيان ؟

فقال الرجل وهو يضبط أعصابه :

ـــ أعرف أنك صاحب « مزاج » وأنك تفرط أحيانا .

فقاطعه :

ـــ أنك تخاطبنى وكأنك ولى أمرى على حين أننى لا أعرفك ويدهشنى أنك تفرض نفسك على بيت فى غياب صاحبه ..

وهو يضحك ضحكة باردة :

ـــ صاحبه ؟!

فتساءل فى عنف :

ـــ كأنك تشك فى ذلك .. أرى ضرورة استدعاء الشرطة !

فاندفع الرجل فى غضب :

ـــ كى تقبض عليك بتهمة السكر والعربدة والاحتيال !

ـــ اخرس إنك محتال وقليل الأدب ..

فضرب الرجل كفا بكف وقال :

ـــ تتجاهلنى لتهرب من تعهداتك ولكن هيهات ..

ـــ أنا لا أعرفك ولا أفهمك ..

ـــ حقا ؟! أتدعى النسيان والبراءة ؟.. ألم توافق على بيع البيت والزوجة

وتحديد هذه الليلة لإنهاء الإجراءات النهائية ؟!

فذهل صفوان وصاح :

ـــ يا لك من شيطان كذاب ..

فقال بهدوء وهو يرفع منكبيه :

ـــ كالعادة كالعادة أف لكم !

ـــ أنت مجنون بلا شك ..

ـــ لدىّ الدليل والشهود !

ـــ لم أسمع عن إنسان فعل ذلك من قبل ..

ـــ بل يحدث كل ساعة ولكنك ممثل بارع وسكران .

فقال صفوان وهو ممزق بين انفعالاته المتضاربة :

ـــ أطالبك بالخروج فى الحال ..

فقال بصوت ملىء بالثقة :

ـــ بل ننهى الإجراءات الناقصة ..

ونهض نحو الباب المغلق المفضى إلى الداخل ونقره ثم رجع إلى مجلسه وفى الحال دخل رجل قصير مربع الأنف بارز الجبهة يتأبط دوسيها متخما بالأوراق فانحنى تحية وجلس . ثقبه صفوان بنظرة قاسية وصاح :

ـــ متى أصبح بيتى مأوى للأغراب ؟!

فقال الرجل الأول مقدما الداخل :

ـــ الأستاذ المحامى .

(رأيت فيما يرى النائم)

فسأله صفوان بشدة :

ــ من أذن لك بالدخول فى بيتى ؟

فقال الأستاذ مبتسما :

ــ أنت مرهق ولكن الله يسامحك ، ماذا يغضبك ؟

ــ يا لك من صفيق !

فقال الأستاذ دون مبالاة بقوله :

ــ الصفقة فى صالحك دون ريب .

فسأله بذهول :

ــ أى صفقة ؟!

ــ أنت تعرف تماما ما أعنيه .. وأود أن أقول لك إن التفكير الآن فى التراجع غير مجد . القانون معنا والعقل أيضا . دعنى أسألك أترى أن هذا البيت هو بيتك حقا ؟!

لأول مرة يشعر بالحرج ويقول :

ــ نعم ولا ..

أكان على هذه الحال عندما غادرته ؟!

ــ كلا .

ــ إذن فهو بيت آخر .

ــ لكنه نفس الموقع والرقم والشارع .

ــ جميع ذلك أعراض لا تمس الجوهر ، وإليك أمرا آخر ..

وقام فنقر الباب ثم رجع إلى مجلسه . وسرعان ما دخلت امرأة متوسطة العمر والجمال مهذبة المظهر مع ميل إلى الحزن فجلست إلى جانب الرجل الأول وعاد المحامى يسأله :

ـــ هل ترى فى هذه السيدة زوجتك ؟

خيل إليه أنها تمت بشبه إليها ولكنه لم يملك أن قال :

ـــ كلا .

ـــ عظيم لا البيت بيتك ولا السيدة زوجتك فما عليك إلا أن توقع على الاتفاق الأخير ثم ترحل ..

ـــ أرحل !.. إلى أين ؟!

ـــ يا سيدى لا تكن عنيدا . الصفقة فى صالحك تماما وأنت تعلم ذلك .

ودق جرس التليفون فى هذه الساعة المتأخرة من الليل وكان المتحدث الخمار .

وعجب صفوان لأنه كان يتلفن له لأول مرة فى حياته قال له :

ـــ صفوان بك .. وقع دون تأخير ..

ـــ لكن هل تعلم ..

ـــ وقع .. إنها فرصة لا تعوض فى العمر إلا مرة واحدة ..

وأغلق السكة . تذكر صفوان الحوار القصير وإذا بأعصابه تهدأ وتستقر وتستسلم من أقصى طرف إلى أقصى طرف . فى ثانية تغير حاله تماما فانبسطت أساريره وزايله التوتر فوقع ، عند ذاك سلمه المحامى حقيبة صغيرة

وثقيلة نوعا ما هو يقول :

ــ فليبارك الله خطاك ، فى هذه الحقيبة كل ما يلزم الإنسان السعيد فى هذه الدنيا .

وصفق الرجل الأول فدخل رجل بدين جدا باسم الثغر جذاب الروح فقال المحامى يقدمه إلى صفوان :

ــ هذا رجل أمين وخبير فى عمله وسيوصلك إلى مأواك الجديد . حقا إنها صفقة رابحة !

ومضى الرجل البدين إلى الخارج فتبعه صفوان ساكنا مطمئنا ويده تشد على مقبض الحقيبة . تقدمه الرجل فى الليل فتبعه ، ولما لفحه الهواء ترنح فأدرك أنه لم يفق بعد من سكرة الليلة المباركة . وأوسع الرجل خطاه فطالت المسافة بينهما فأسرع بدوره رغم سكره مسددا بصره نحو شبح الآخر وهو يعجب لجمعه بين الخفة والبدانة وهتف به :

ــ تمهل فى سيرك يا حضرة .

فكأنه حثه على مزيد من السرعة فتدفق فى خطى متلاحقة ، فاضطر صفوان إلى الهرولة خشية أن يفقده فيفقد أمله الأخير ولكنه خاف أن يعجز عن الصمود فهتف به مرة أخرى :

ــ تمهل وإلا ضللت طريقى .

فإذا بالآخر غير عابئ به ففزع صفوان واندفع يجرى غير مبال بالعواقب وناله من ذلك عناء شديد وغير مجد أيضا لأن الرجل غاص فى الظلام وتوارى

عن عينيه . وخاف أن يسبقه إلى ميدان الينابيع حيث تتفرق طرق شتى فلا يدرى فى أى طريق ذهب فراح يجرى بأقصى سرعة مصمما على اللحاق به . وأثمر جهاده فلاح له شبحه مرة أخرى عند مفترق الطرق . رآه ينطلق صوب الأمام نحو الحقول متجاهلا الفروع المائلة نحو المدينة شرقيها وغربيها فانطلق وراءه وتواصل العدو بغير انقطاع ودون أدنى شعور بالعجز من ناحيته وفغمت خياشيمه روائح طيبة مستثيرة ذكريات شتى لم يجد وقتا لتمليها ومعايشتها وعندما انفرد بهما فضاء السماء والأرض أخذ يهدئ من سرعته على مهل حتى رجع إلى الهرولة فالمشى ثم توقف ولحق به وتوقف وهو يلهث . نظر إلى الظلمة الشاملة المشعشعة بأضواء النجوم الخافتة ثم تساءل :

ــ أين المأوى الجديد ؟

فلزم الرجل الصمت على حين راح هو يشعر بغزو ثقل جديد ينقض على منكبيه وسائر جسمه ونما الثقل وتصاعد حتى خيل إليه أن قدميه ستغوصان فى الأرض واشتدت وطأته حتى لم تعد تحتمل الصبر وباندفاعة عفوية خلع حذاءه ومضت الوطأة فى صعود فنزع جاكتته وبنطلونه وطرحهما أرضا ولم يحدث ذلك أثرا يذكر فتخلص من ملابسه الداخلية غير مبال برطوبة الخريف غير أن الألم ألهبه فلم يجد بدا من ترك الحقيبة تهوى إلى الأرض وهو يتأوه . عند ذاك خيل إليه أنه استعاد توازنه وأنه يستطيع أن يتابع الخطوات المتبقية وانتظر أن يفعل صاحبه شيئا ولكنه غرق فى الصمت وأراد أن يحاوره فامتنع عليه الحوار وتسلل الصمت الشامل من مسامه إلى صميم قلبه . وخيل إليه أنه سيسمع بعد قليل الحوار الدائر بين النجوم .

رأيت فيما يرى النائم

الحلم رقم ١

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى راقد . أننى نائم أيضا ولكن وعيى يرامق الظلام المحيط . وثمة أنثى أقبلت يند عنها حفيف ثوب . والحجرة ما الحجرة ؟، أهى حجرتى الراهنة أم أخرى آوتنى فيما سلف من الزمان ؟. ويتهادى الوجه إلى حسى رغم الظلام . باستدارته الناعمة وسمرته الصافية ورنوته الناعسة . نسق تسريحتها عصرى أما ثوبها فقديم يجر ذيلا مثل سحابة رشيقة . وهمس صوت لم أر قائله :

ـــ للزمن نصل حاد وحاشية رقيقة .

وركعت فى استسلام وانهمكت فى عمل . ثبتت عليها عيناى ولكننى لم أنبس بكلمة . وحدست وراء انهماكها غاية دانية . وقال الصوت :

ـــ الأنفاس العطرة تصدر عن قلب طيب .

وانتظرت حتى جمعت أدواتها ونهضت فى رشاقة . ومضت نحو الخارج . شدتنى بخيوط خفية لا تنقصف فانزلقت من الفراش وتبعتها . وهيمن على شعور بأننى مدعو لأمر ما ، وأننى لن أحيد

عن التطلع إلى الأمام . تمضى متأودة كأنها ترقص باعثة وراءها بنسائم من الذكريات . تعرف طريقها فى الليل وأهتدى أنا بشبحها . ومررت بأشياء وأشياء ولكنى أنسيتها فتوارت مثل شرر متطاير . وعند موضع عبق بشذا الحناء فصل بيننا قطار سريع طويل رج الأرض ومن عليها . وبذهاب ضجيجه استوى الليل أمامى وحده فضاعفت من سرعتى . وأطبق الليل وحده واختلجت فيه الوعود المضمخة بشذا الحناء . لم يعد فى وسعى التراجع وليس معى من الحوافز إلا الظمأ والشوق .

الحلم رقم ٢

رأيت فيما يرى النائم ..

حبة رمل ملقاة بين جذور أشجار فى مكان لعله غابة . جذبت انتباهى واستحوذت عليه ببريقها ، وبما أوحته إلى من أنها ترانى كما أراها . وقلقت فى موضعها فلم أشك فى أنها مقبلة على مغامرة وأثارت حب استطلاعى إلى أقصى حد . ومضت تنتفخ رويدا حتى آلت إلى كرة مغطاة بزوائد مثل أوراق الورد ، مرقوم على صفحاتها كلمات لم أتبينها . ووثبت كأنما قذفتها قوة فى الفضاء مقدار أشبار وتهاوت مرتطمة بالأرض محدثة صوتا قويا استرسل صداه فيما يشبه النغم . وتمادت فى الانتفاخ حتى صارت فى حجم قبة ضخمة ثم انطلق منها عمود عملاق بسرعة مخيفة زلزلت لها الأشجار

الفارعة حتى تلاطمت ذراها مع حشائش الأرض ، وانبثقت من العمود فروع لا حصر لها غاصت فى الفضاء ، وانبسطت أوراقها كالزواحف مثقلة بآلاف الكلمات المبهمة وركبنى الارتياع فعدوت بأقصى ما لدى من سرعة مبتعدا عن مركزها المتفجر . عدوت منها ولكنى عدوت فى مجالها وحضنها وقبضتها ، فلا منفذ للهرب ولا صبر على التوقف أو الاستسلام . والفورة محدودة وسطح الأرض معاند والرياح على غير ما أشتهى واستوى فى شعورى البعد والقرب إزاء تلك الكينونة المتمادية فى التعملق بلا نهاية . إن صوت نموها الهائل يدوى وظلها يغشى الأشياء كالليل . وردة فعلها تعبث بالكائنات وأطراف قبضتها تنحدر فيما وراء الأفق . وتبين لى أننى لست الوحيد فى المأزق ، وأن ملايين يلهثون من العدو ، وأن السحب تركض أيضا والرياح وأضواء النجوم . وارتفع صوت قائلا :

— رفهوا عن أنفسكم بالغناء ..

فتساءل صوت آخر :

— هل يطيب الغناء والمطرب يتخبط فى القبضة ؟

فقال الصوت الأول :

— رفهوا عن أنفسكم بالغناء !

وتحركت الحناجر تغنى كل على ليلاه . وتضاربت الأصوات فانقلبت عربدة تنضح بالوحشية والجمال .

الحلم رقم ٣

رأيت فيما يرى النائم ..

أن ثمة عينا ترنو إلى .. عين كبيرة كأنها فسقية ، جميلة الرسم ، عقيمة السواد ، ناصعة البياض ، مستوية فى مكان غير معروف ولكن سحائب بيضاء تظللها . وفى نظرتها ما يوحى بأنها ترانى ، وربما تعرفنى ، ولكن يكتنفها حياد يقصينى إلى ما وراء الغيب ، وقلت لنفسى إنها عين امرأة فأين بقيتها ؟. وقلت أيضا بصوت مسموع :

ـــ آفة الحب الحياء !

عند ذاك رأيت حيالى رفيق صباى الراحل فتعانقنا بحرارة ، وفى غمرة الفرحة باللقاء نسيت حزنى الكبير عليه . وسرعان ما اختفى من مجال البصر لتحل محله ساحة المولد النبوى فى أيامها البعيدة الزاهرة . ووجدتنى فى صف طويل أمام شباك التذاكر الخاص بخيال الظل . ودخلت مسرحه الصغير ولكنى وجدت نفسى فى سرادق امتحان . واتخذت مجلسى كتلميذ وشرعت فى الإجابة . ولما لم يبق من الزمن إلا دقائق وضح لى أننى أجبت على سؤال غير السؤال المطلوب الإجابة عليه . وضاق صدرى فتساءلت :

ـــ سهوة عابرة تضيع حياة ؟!

فسألنى المراقب متهكما :

ـــ أنسيت قول المتنبى ؟!

فحرت أى بيت يقصد وتحاشيت السؤال . ووجدتنى بعيدا أتأبط ذراع رفيق صباى الراحل متطلعين معا إلى العين . تبدت العين هذه المرة أوغل فى العمر وأحوز للحكمة وأعمق فى الحياد . قلت لصديقى :

ـــ أخشى أن يغلبنى الحزن .

فأضاء وجهه بضحكة صافية وسألنى هامسا :

ـــ من القائل « آه لو تعلمون ما أعلم .. » ؟

فعصرت ذاكرتى لأتذكر ولكن الديك صاح مؤذنا بطلوع الفجر .

الحلم رقم ٤

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى فى العوامة كالأيام الماضية . وغنى صوت فى أعماق « عادت ليالى الهنا » . وشعرت بالدفء وسط الأصدقاء والأحباب . ولما تفرست فى الوجوه انتقلت من حال إلى حال . المكان هو المكان ، والمنظر هو المنظر ، ولكن أين الوجوه أين ؟!. أمسك الزمنَ بقلمه ونقش على صفحاتها تجاعيده . وبث فى مجاريها ذبوله . وامتص بنهمه النضارة والرونق . وفى مواضع المصابيح الكهربائية حلت شموع تحترق فلم يبق من قاماتها الرشيقة إلا أنصاف وأرباع . ورقصت ظلال الأشباح فوق الجدران ، ومن الأفواه

المثرمة تساقطت ضحكات فاترة كأنها أنات وتنهدات . وفى مركز الجلسة بسطت سجادة مربعة صفت عليها جنبا إلى جنب جثث محنطة للأعزاء الراحلين . قال صوت :

ـــ هكذا كان يفعل قدماء المصريين فى حفلاتهم .

فتساءلت :

ـــ ولكن أين ذهبت الحضارة ؟

فقال صوت :

ـــ المنبع والمصب يقعان خارج أسوار الحضارة .

وافتقدت بشدة الحوار والثرثرة فتساءلت :

ـــ ماذا أسكتنا ؟!

فأجاب صديق ضاحكا وعيناه تدمعان :

ـــ اللعنة فى التكرار .

فتساءلت :

ـــ أليس ثمة شكوى جديدة تقتضى ضحكة جديدة ؟

فأجاب مستزيدا من الضحك والدموع :

ـــ ثبت أن جميع الشكاوى مسجلة على حجر رشيد ..

واقتحم عم عبده علينا مجلسنا وهو يقول :

ـــ آن أوان قراءة الطالع ..

ونظر فى بطون نعالنا مليا ثم قال :

ـــ ستسيرون فوق الماء إلى جزيرة الذهب ..

وهيمن علينا الحلم والابتسام ..

الحلم رقم ٥

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى فى استديو . مضيت كمن يعرف طريقه إلى البلاتوه رقم « ١ » فى صمت كامل يوحى بأن ثمة تصوير اللقطة ما . اقترب منى رجل بدين ذو مظهر سيادى وهمس فى أذنى :

ـــ أهلا بك يا أستاذ .

ووجدتنى أعرف أنه المنتج وأننى مندوب فنى لمجلة الفن . وتابعت المشهد الذى تدور الكاميرا لتصويره وسط جمع من الفنانين والفنيين يتابعونه أيضا فى صمت تقليدى وباهتمام غزير . وكان المشهد يمثل صحراء مترامية ليس بها قائم سوى نخلة فارعة رقد تحتها عربى متلفعا بعباءته . ويدخل المشهد رجلان ، عربى وأعجمى ، يقتربان من النائم ، ثم ينحنى العربى فوقه قائلا بإجلال :

ـــ يا أمير المؤمنين !

يستيقظ النائم ثم يجلس مرسلا بصره نحو القادمين فيقول العربى مشيرا إلى

الأعجمى :

ـــ رسول قادم من بلاد فارس .

ينهض أمير المؤمنين ، يتبادل التحية مع القادم ، ثم يسأله :

ـــ ماذا وراءك ؟

القادم يتأمله بدهش ثم يسأله :

ـــ أأنت حقا أمير المؤمنين ؟

فيجيب بتواضع :

ـــ إنى عبد الله وإمام المؤمنين من عباده .

فيقول الرجل فى انبهار :

ـــ عدلت فأمنت فنمت ..

وعند ذاك ينتهى تصوير اللقطة . ينظر المنتج إلىّ قائلا :

ـــ أخيرا سمحت الرقابة بإنتاج فيلم عن سيدنا عمر .. فقلت مهنئا :

ـــ خطوة عظيمة ..

فقال الرجل فى مباهاة :

ـــ لقد اقتضى السعى أن نطلب وساطة الرئيس الأمريكى ريجان !

وقمت بجولة سريعة فى بعض ملاهى الهرم ثم رجعت إلى البلاتوه رقم «١» لمشاهدة تصوير لقطة جديدة . كان المشهد الذى يجرى تصويره هو نفس المشهد السابق ، الصحراء المترامية والنخلة الفارعة . غير أنه كان ثمة رجلا عربيا فى عباءة رثة لابسا فى رأسه طرطورا وهو مكب على حفر موضع غير

بعيد من النخلة. إنه نفس الممثل ونفس المنظر ولكنه لا يمكن أن يكون الفاروق عمر!.. يمر به عربى آخر فى عباءة من الخز ثم يدور بينهما الحوار الآتى :

العربى القادم : مالك يا جحا ؟

جحا : إنى قد دفنت فى هذه الصحراء دراهم ولست أهتدى إلى مكانها .

العربى : كان يجب أن تجعل عليها علامة !

جحا : قد فعلت .

العربى : ماذا ؟

جحا : سحابة فى السماء كانت تظلها ، ولست أرى العلامة !

وانتهى تصوير اللقطة فأعقبه همهمة من الاستحسان . وسألت المنتج عن معنى وجود جحا فى فيلم عن عمر وكيف يقوم بالدورين ممثل واحد ، فضحك طويلا وقال :

— إنى أنتج فلمين فى وقت واحد ، أحدهما عن عمر والآخر عن « جحا فى بلاد العرب » ، ورأيت أن أستفيد من كل منظر مشترك توفيرا للجهد والمال ، وهذا منظر مشترك فصورنا عمر للفلم الأول ، وجحا للفلم الثانى .

— والممثل واحد فى الحالين ؟!

فقال بثقة :

— إنه نجم شباك ، ومن القلة النادرة التى تحسن تمثيل الدراما

والكوميديا ..

رأيتني عقب ذلك وأنا أركض بسرعة فائقة ، ولكني لم أدر أأركض وراء هدف أريد أن أدركه أم أركض من مطارد يروم القبض عليّ ..

الحلم رقم ٦

رأيت فيما يرى النائم ..

أنني فى حجرة بلا نوافذ مغلقة الباب ، بها مقعد واحد وشمعة تحترق مثبتة فوق الأرض . ودق الباب دقا متتابعا ففتحته فخيل إلى أنني أنظر فى مرآة . إنه صورة طبق الأصل مني إلا أنه عار تماما إلا مما يستر العورة . سألته :

ـــ من أنت ؟

فأجاب وهو يلهث مما دل على أنه شق طريقه ركضا :

ـــ إنك تعرف تماما من أكون .

ـــ ولكني لا أصدق عيني .

فقال وهو يتنفس بعمق ليسترد توازنه :

ـــ أما أنا فأصدق كل شيء ، وورائي عمر وأجيال لا تحصى ..

فقلت برثاء :

ـــ كان ينبغي أن تكون راقدا فى سلام ..

(رأيت فيما يرى النائم)

فقال بعتاب :

ـــ لكنك لم تتركنى للسلام ، ما زلت تلاحقنى بخواطرك حتى أخرجتنى من الزمن !

فقلت بأسف :

ـــ كأنك مطارد !

ـــ كيف أفلت من القبضة دون مطاردة ؟!.. أسرع لنهرب معا ..

فقلت محتجا :

ـــ مجيئك إلى ورطنى فى جريمة لا شأن لى بها ..

فجال ببصره فى الحجرة وقال :

ـــ لا يبدو أن حظك أسعد من حظى ، أسرع ..

فقلت بقلق :

ـــ ليس الأمر كما تتصور ..

فقال بضيق :

ـــ ولا هو كما تتصور أنت ، أسرع فإنهم لن يفرقوا بيننا ..

ـــ لولا مجيئك ما لحقتنى الشبهة ..

ـــ إنها مسئوليتك ، لا تبدد الوقت ..

فسألته بغيظ :

ـــ ولكن إلى أين ؟

فقال بعجلة :

ـــ سنفكر فى ذلك ونحن نعدو ..

وتماسكنا باليد وأطلقنا ساقينا فى الليل كمجنونين . وتساءلت :

ـــ كيف نحسن التفكير ونحن نركض بهذه السرعة ؟

فهتف بحدة :

ـــ اجر .. اجر .. ألم تشعر بفساد جو الغرفة ؟!

فقلت كالمعتذر :

ـــ إنى لا آوى إليها إلا فى الليـــل ..

فهتف :

ـــ لا يوجد ليل ولا نهار ولكن يوجد الهواء والركض ..

وتساءلت :

ـــ لماذا لا أسمع أصوات من يطاردوننا ؟!

ولكنه لم يجب . وشعرت بأن يدى لم تعد تقبض على شىء ، وأنه لم يعد له أثر ، و لم تساورنى أى رغبة فى التوقف ..

الحلم رقم ٧

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى فى حديقة من أشجار الليمون . وأن الناس يزدحمون حول أشجارها ويتبارون فى ملء مقاطفهم من ثمارها . وأن ثمة بيعا وشراء ومساومات ، وتنافسا حاميا يشتعل . وأن رجال الشرطة يتدخلون أحيانا لفض نزاع بهراواتهم فتسيل دماء . وكنت أتجول بين الجماعات بلا مقطف حتى قال السمسار ساخرا :

ـــ رجل مجنون جاء السوق بلا مقطف !

والحق أن الشذا هو الذى دعانى لا السوق ، فهمت على وجهى أتغزل برشاقة الأشجار وخضرتها الباسمة وأغصانها الثرية . وتخلق حب خالص فى رعاية القبة الزرقاء . وفى لحظة مشرقة استحلت غصنا فأفلت من مطاردة السمسار . ومضى الزمن وأنا أتأود على دفقات النسيم ، وأنهل من حرية عبقة بشذا الليمون .

الحلم رقم ٨

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى عيسى بن هشام بطل مقامات الهمذانى ومريد أبى الفتح الإسكندرانى . وأننى كنت أعبر ميدانا فى مكان وزمان غامضين . وترامى إلى هتاف مدو بحياة الاستقلال وسقوط الحماية . ثم وجدتنى على حافة مظاهرة ضخمة تحدق بخطيب مفوه جهير الصوت . عرفته رغم بعده عنى بزيه الأزهرى وهو يهدر داعيا إلى الثورة والفداء . وهجم الفرسان الإنجليز فنشبت معركة ثم وجدتنى وجها لوجه مع الخطيب قريبا من مدخل جامع . قلت :

ــ أنت أبو الفتح الإسكندرى ، خطيب الثورة الحر ..

فقال بحزن ملتهب :

ــ نفوا الزعيم الجليل نفاهم الله من الوجود ..

ثم أنشد يقول :

لـن ينـال المجد مـن ضا   ق بما يـغشاه صدرا

* * *

وتغير المكان والزمان كما أوحى إلى وجدانى . ورأيتنى أمتطى سلحفاة

معمرة فى حجم عنزة . وشهدت اجتماعا فى قاعة عظيمة الاتساع تحرسها رماح الجنود . وظهر فوق المسرح خطيب اندفع يقول بحماس :

ـــ لوذوا بالمليك ، صاحب العرش ، هو العامل الأول والعالم الأول والوطنى الأول وقد دالت دولة المهرجين ..

سرعان ما عرفته رغم زيه الجديد المكون من البدلة الأفرنجية . وتبعته إلى الطريق وهو ينادى تاكسى فاقتربت منه قائلا :

ـــ أهلا بأستاذنا أبى الفتح الإسكندرى ..

فعرفنى بدوره وصافحنى ثم سألنى :

ـــ ماذا فعلت بك الأيام ؟

ـــ كعادتها خيرا وشرا ، ولكن ماذا غيرك أنت فنقلك من النقيض إلى نقيض ؟!

فقال بجفاء :

ـــ العزة فى التنقل .

ثم أنشد يقول :

الـــذنب للأيـــام لالى　　فاعتب على صرف الليالى

بالحمــق أدركت المنـــى　　ورفلت فى حلل الجمـــال

* * *

ومضى الزمن بى وأنا ممتط هذه المرة حمارا . ووجدتنى فى ميدان لو ذررت الملح فيه لم ينفذ إلى الأرض من هول الزحام . وفوق حافة نافذة فى

الدور الأسفل من بناء ضخم وقف خطيب يرتدى بنطلونا وقميصا نصف كم يعلوه وقار الكهولة ويقول :

ـــ ثورة مباركة تنسخ حياة فاسدة ، وزعيم مبارك يشهر سيفه فى وجه ملك فاسد ، وحلم يتحقق تنبأت به كلماتى الحارة المسطورة فى الصحف !

ثم وجدتنى مع الخطيب عقب انفضاض الجمع الحاشد . قلت :

ـــ يا أبا الفتح يبلى الزمان وتبقى لك جدتك لا تبلى .

فقال باسما :

ـــ حمدا لله الذى أبقانى حتى أشهد هذا الزعيم .

فقلت بعد تردد :

ـــ ولكنى لا أذكر أنك تنبأت بما حدث أو ضقت بما كان !

فأنشد قائلا وهو يضحك :

أنـا ينبـوع العجـائب   فى احتيالى ذو مـراتب
أغتـدى فى الديـر قسـيسا   وفى المسجـد راهب

* * *

وجرى الزمان وقد أركبنى بغلا . وإذا بأمواج من البشر تتلاطم وتقذف بالهتافات إلى أركان المعمورة ، وثمة سيارة تمضى على مهل يقف فى مقدمتها رجل يخطب من خلال مكبر صوت :

ـــ محق الله الزيف والضلال ، اختفى مدعى الزعامة ، واستوى على العرش الزعيم ، الشاب المكافح ، والمناضل ، والمعلم ، والرائد ، ومتبنى

ثورات العالم ..

وخلوت إليه فى مكان ذكرنى بزاوية العميان بالباب الأخضر ، وقلت :

ـــ ما أنت إلا شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ..

فقال وهو يشد على يدى :

ـــ لا يحتاج الأمر إلى فراسة !

فقلت :

ـــ يا لك من وثاب لا يثبت على حال !

فقهقه طويلا ثم أنشد :

بؤسا لهذا الزمان من زمن   كل تصاريف أمره عجب

أصبح حربا لكل ذى أدب   كـأنما ساء أمـه الأدب

* * *

ووجدتنى أزحف مع الزمان فوق السلحفاة كرة أخرى . ورأيت جموعا لم أر لكثافتها مثيلا من قبل ، تسفح الدمع وتمزق ثيابها من لوعة الحزن . هذا والمدفع يمضى بالنعش دائسا على إرادات البشر . ثم وجدتنى فى بهو مكتظ المستمعين ، ورجل وقور أبيض الشعر يقول بحكمة وأسى :

ـــ دعوا البكاء للنساء ، مصر باقية لا تموت ، وآن لنا أن ننطق بالحق ، ما كان عهده إلا عهد التعذيب والإفلاس والهزائم . أفيقوا من الحزن والسحر معا ، وابدعوا الحياة من جديد ..

فخرقت الصفوف حتى واجهته وهتفت به :

ــ إنك لمعجزة يا أبا الفتح .

فهز رأسه ساخرا وأنشد :

هــــذا الزمــــان مشوم   كما تـــــــــــراه غشوم
الحمــــق فيـــه مليـــح   والعقــل عـــيب ولـــوم
والمال طيـــف ولكـــن   حـــول اللئـــام يحوم

فسألته :

ــ ألك نظير فى العباد ؟!

فقهقه عاليا وأنشد :

إسكندريـــــــة دارى   لـــو قـــر فيها قـــرارى
لكـــن بـــالشام لـــيلى   وبالعــــــــراق نهارى

الحلم رقم ٩

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى فى مدينة أنيقة أرضها أعشاب عميقة الخضرة ، تنتثر فى جنباتها عيون ماء ، وتظلها أشجار بلخ وليمون وبرتقال . تجولت فيها طويلا فلم أصادف إنسانا ولا جانا ولا حيوانا ثم لمحت تحت صفصافة أسدا يقرأ فى كتاب فقصدته متشجعا بطمأنينة باطنية . رفعت يدى تحية وسألته :

ــ ماذا تقرأ يا ملك الملوك ؟

فرمقنى بهدوء وتمتم :

ـــ كليلة ودمنة ..

فسألته باهتمام :

ـــ لماذا يا ملك الملوك ؟

ـــ منه تعلمنا كيف نعيش فى سعادة ..

ـــ ولكن المدينة خالية !

فقال بسخرية :

ـــ يلزمك أن تتعلم كيف تنظر ، ما صناعتك ؟

فقلت بإيحاء داخلى :

ـــ أنا مغن !

فتهلل وجهه وقال :

ـــ نحن لا نستقبل إلا المغنين ، أسمعنى بعض ما عندك ..

فغنيت :

مـافى النهار ولا فى الليـل لى فـــرج

فمـا أبـالى أطـال الليـــل أم قصرا

فهز رأسه طربا حتى تشعثت لبدته وقال :

ـــ أرحب بك فى مدينتنا لتذكر أهلها بتعاساتهم القديمة فيزدادوا امتنانا لما حلت بهم من نعمة .

ونادى نسرا فهبط وئيدا فى جلال وطاعة فأمره قائلا :

ـــ اذهب بهذا الضيف الجديد إلى فندق الرضى ..

الحلم رقم ١٠

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى فى صحراء لا يحدها إلا الأفق . أقيم خيمة لأمضى بها عطلة نهاية الأسبوع . لا صحبة إلا الرمال فى الأرض والزرقة العميقة فى السماء وحدأة تدور عاليا فوق رأسى كأنما تنتظر . وظهر أمامى فجأة رجل فى عباءة حمراء ينطق وجهه بالشباب والأسى . تبادلنا النظر ثم تبادلنا التحية . قلت له :

ــ لعلك فى عطلة مثلى ؟

سألنى وكأنه لم يسمعنى :

ــ من أنت ؟

فأجبته بإيجاز :

ــ اسمى نديم .

ــ نديم من ؟

ــ إنه اسم لا صفة ، كأنك تبحث عن شىء ؟!

فقال بحيرة :

ــ ملابسك غريبة ، أأنت من أهل المكان ؟

— إنى أزوره أحيانا التماسا للنزهة .

— متى زرته آخر مرة ؟

— منذ شهر .

فأشار إلى موضع من الرمال المترامية وقال :

— كان هنا يقوم قصر الملكة .

فتساءلت بذهول :

— أى ملكة ؟

فأشار إلى موضع آخر وقال :

— وذاك موضع دار القضاء ..

فداخلنى شك فى عقله وسألته :

— متى زرت المكان آخر مرة ؟

فقال دون مبالاة :

— منذ خمسة آلاف سنة !

فلم أتمالك من الضحك فقال ببرود :

— ماذا يضحكك يا هذا ؟!

وجعلت أنظر إليه فى حذر متحاشيا إثارته فقال وهو يشير إلى موضع جديد :

— وهناك كانت تصدح أرجاء البهو بالغناء .

فقلت أجاريه متظاهرا بتصديقه :

ــ مائة عام كافية لتغيير أى مكان فما بالك بخمسة آلاف سنة ، من حضرتك ؟

فقال بهدوء :

ــ أنا الخضر ..

ــ سيدنا الخضر ؟!

ــ سيدنا ؟!

ــ لقد حظيت بالخلود فأنت سيد البشر !

فقال بأسى :

ــ أنا أسير الوحدة ، فأنا الخلاء وأى أغراب لا يعرفوننى ..

واندفعت بإلهام قوى أقول :

ــ هلا سمحت لى بمرافقتك بعض الوقت ؟

فهز منكبيه وقال :

ــ لن تستطيع معى صبرا .

ومضى مبتعدا وهو يسير بسرعة البرق ..

الحلم رقم ١١

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى حزين وقلبى ثقيل ولكننى لا أعرف سببا معينا لحالى . وسرت فى طريق مجهول حتى أرهقنى السير . وشعرت طوال الوقت بأننى أسعى وراء غاية لكنها غابت عن وعيى أو غاب عنها وعيى . وتبرق لحظة خاطفة فى غياهب نفسى مغررة بى فأتوهم أننى مستكشفها ولكنها سرعان ما تغوص فى الظلام مخلفة يأسا . ودوما لا أكف عن التطلع والانخداع واليأس ولا أكف عن السير . وصحبنى الحزن مع خطاى ، وانثالت على صور متلاحقة سريعة هامسة بذكريات الهناء الراحل والأحبة الذاهبين . وأذهلتنى كثرتها كما أذهلنى عدمها . وقعقع الرعد حتى ارتعشت أطرافى ، ولكنه قال بصوت واضح :

ـــ سوف تنقشع الأحزان وينهمر المطر .

الحلم رقم ١٢

رأيت فيما يرى النائم ..

أن الأرض تتقشر ، وتتشقق . وتتقلص وتموج ، ومن الأعماق تبرز على مهل عمد وأسطح وقباب ، ثم مضى يتجلى وجه مدينة غامرة . شوارعها محجوبة بالأتربة ، مساكنها متهدمة ، وما بها من قائم سوى المعابد وبعض التماثيل . وتحلقها قوم لا حصر لهم ينظرون ويتحاورون :

ــ مدينة أثرية جديدة ..

ــ وثائق لتاريخ جديد .

ــ ألا يوجد أثر لإنسان ؟

ــ المقابر لم تكتشف بعد .

ولبثت ما لبثت حتى انتبهت فوجدت نفسي وحيدا . ورحت أخترق شارعها الرئيسي حتى أدركني الليل وأظلتني النجوم . ومزقت السكون صرخة . صرخة أنثى فيما بدا لي . وثمة طيف هرع نحوي حتى جثا بين يدي ، وثمة صوت هتف :

ــ أنقذني ..

سألتها :

ـــ ماذا يتهددك ؟

ـــ سيف الجلاد .

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا بريئة .

فسألتها بشدة :

ـــ ما تهمتك ؟

ـــ التهمة التى لا يبرأ منها أحد ، حتى أنت !

فقبضت على يدها وأنهضتها ، ثم انطلقنا معا كشهابين فى ظلمة الليل ..

الحلم رقم ١٣

رأيت فيما يرى النائم ..

امرأة فى الخمسين تذهب وتجىء بوجه جففته الوحدة . قلت إنى أعرف هذا الوجه ولكن من ، ومتى ، وأين ؟. وحيرتنى سحب النسيان . غير أن المرأة لم تهجع ولكنها ذهبت محمومة وهى ترمقنى بعين مفكرة ثم رجعت بشاب رث الهيئة وهى تربت خده بحنان . وانقض عليها الشاب فاعتصرها بين ذراعيه مليا حتى تأففت . ورماها بنظرة نكراء ثم دفعها فتهاوت على الأرض فانهال عليها ضربا ثم ذهب. جعلت تتأوه وتبكى، ثم قامت فى إعياء

شديد وقد فقدت ذراعها اليسرى . قلت لها :

ـ ذراعك !

فأعرضت عنى ومضت ، ثم رجعت وهى تربت خد شاب شبه عار . وجذبها إليه مثل ذئب جائع واعتصرها بين ذراعيه . وانفصل عنها متقززا وصب عليها قبضتيه وقدميه حتى سقطت على وجهها . وغادرها فاستسلمت للنحيب ثم نهضت طاعنة فى السن وقد فقدت ذراعها اليمنى . وقلت لها :

ـ ذراعك !

فأعرضت عنى وولت . وتكرر الفعل وردة الفعل حتى لم يبق منها إلا اللسان . وغزانى الحزن والعجب فتساءلت :

ـ ماذا فعلت بنفسك ؟!

فأجابنى لسانها :

ـ الوحدة والحنان ..

وتساءلت فى حيرة « متى سمعت هذه العبارة من قبل ..؟ ».

الحلم رقم ١٤

رأيت فيما يرى النائم ..

شابا وسيما ، يسير بسرعة ، يشع من عينيه الصافيتين نور يضىء له الطريق . يوحى مظهره بالفتوة والحماس ومعرفة الهدف ، فانجذبت إلى اتباعه لأحظى برؤية ما هو فاعل . منيت نفسى بمشاهدة حدث أو نجاح مأثور ، فكلما تحفز تحفزت ، وكلما ضاعف من سرعته ضاعفت ، وكلما أشرق وجهه أشرقت . وقطعنا أماكن كثيرة ، ورأينا مناظر عجيبة ، وتعاملنا مع أناس لا ينسى لهم خير ولا شر ، وسليت نفسى المتوترة بأن المشهد المرموق سيهل على بطلعته الشافية المترقبة . و لم أكترث للزمن المنطوى ولا للجهد الضائع . ولكن الشاب الوسيم راح يتغير منظره ، وتتقلص عضلات ساقيه وتنخفض درجات سرعته رويدا . وجعلت أسمع تردد أنفاسه وهى تغلظ وتثقل ، وأنات شكواه المتصاعدة ، وبرمه بكل شيء . وأخذ يسب ويلعن ويشتعل غضبا . وأخيرا توقف عاجزا عن الاستمرار ، ثم تهاوى على الأرض وهو يلهث . وجزعت جزعا شديدا ، وهتفت :

ــ تشدد واستمر ..

وخيل إلىّ أن النوم يغالبه فصحت :

ــ عليك تقع مسئولية شرودى وانخداعى ..

فرفع إلىّ عينين مظلمتين وهمس :

ــ هبنى رحمة الوداع ..

حولت عنه عينى الحانقتين ورفعتهما إلى السماء فرأيت السحب تتراكم كأنها الليل ثم استجابت لرياح الشرق فانقشعت فبشرنى هاتف الغيب بالعزاء ..

الحلم رقم ١٥

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى أسير فى شارع ضيق طويل . شغلت بهدفى فلم أنتبه للمارة . وفى نهاية الشارع طالعنى مبنى يجمع فى هيئته بين المعبد والجامع والمسكن . دخلته مطمئنا إلى دعوة لا أدرى متى ولا كيف تلقيتها . وقطعت دهليزا بلغ بى بابا مقبب الهامة فدفعته ودخلت . لم أر من المكان إلا الرجل الجالس فى صدره . رجل بالغ الكبر ولكنه على كبره واضح الصحة والعافية . بارز الملامح ، ذو وجه عريق مجلل بالوقار واللحية البيضاء ، ينفث عطرا يذكر بالعصور الخالية . لثمت يده وقلت معتذرا :

ـــ جئت تلبية للدعوة .

فقال بصوت عميق التأثير فى النفس :

ـــ تأخرت قليلا ولكن لا بأس ..

وأشار إلىّ فتربعت على شلتة بين يديه وأنا أسائل نفسى عما وراء دعوته . ولكنه لم ينبس بكلمة . وسرعان ما وجدت عينى تنجذبان إلى عينيه حتى خيل إلى أننى أنظر إلى بللورتين متوهجتين . اختفى العالم والوجود . ثم عدت إلى وعيى على لمسة من يده وسمعته يقول :

ـــ يا له من حديث ويا لها من مناجاة !

فهممت أن أقول إننى لا أذكر شيئا ولكنه بادرنى بنبرة توديع حاسمة :

ـــ اذهب مصحوبا بالسلامة .

رجعت من الشارع الضيق الطويل وأنا أشعر بأننى مشدود إليه بأسلاك غير مرئية ، وأننى أسيره الأبدى . وأردت أن أمارس حياتى المألوفة فقصدت لونابارك نزهتى المفضلة ولكن الأسلاك الخفية صدتنى عنها فتحولت عنها وأنا أقول لنفسى :

ـــ إنى مسير بإرادته !

اقتنعت تماما بأننى أفعل ما يريد لا ما أريد أنا ، وأنه يسوقنى إلى أشياء وأشياء وأننى لم أعد أنتفع بعقلى أو ذوقى . وسمعت الناس يتحدثون عما يقع ويتساءلون عن الفاعل المجهول . وها هم يجدون فى أثرى والحلقة تضيق ولكنهم لا يتفقون على رأى ، فمنهم من يطالب بعنقى ومنهم من يدعو لى

بالسلامة !، والحق أن الرجل لم يثر فى نفسى الكراهية ، ولكننى تقت للتحرر من سطوته الشاملة المخيفة . ولا أدرى كيف ساقنى الحظ إلى مكتب التحقيق فرأيتنى أمام المحقق وهو يقول لى :

— اعترف فهو خير لك .

فقلت :

— إنى برىء وما كان بوسعى أن أفعل إلا ما يمليه على ..

فقال متهكما :

— الرجل ينكر قصتك المختلقة معه فأنت أمام القانون عاقل حر ..

فهتفت وكأنما أخاطب الرجل :

— إنك تعرف الحقيقة فأنقذنى !

ومكثت فى السجن أنتظر يوم الإعدام . وبلغ بى الضيق منتهاه . وإذا بشعور يهمس لى بأن ما أعانى ما هو إلا كابوس . عند ذاك قررت أن أستيقظ مهما كلفنى الأمر . ورحت أضرب مقدم رأسى بقوة ودون توقف ناشدا بإصرار اليقظة المأمولة ..

الحلم رقم ١٦

رأيت فيما يرى النائم ..

أن طيفا زارنى بليل فقدم لى كأسا وقال بصوت عذب :

ـــ اشرب .

فشربتها حتى الثمالة . ذاب الطيف فى الظلمة . وانتشر السائل فى جسدى وروحى كالشذا الطيب . ونهضت وأنا أشعر شعورا راسخا بأننى أملك قوة لا حد لها . وأردت أن أجرب صدق شعورى فأمرت النوافذ أن تفتح . وفى الحال انفتحت النوافذ على مصراعيها وتدفق النور . وخرجت أتجول فى شوارع المدينة معتزا بالقوة الخارقة . وفطنت غرائز القوم الملهمة لسر القوة الكامنة فى أعماق فخاطبتنى نظراتهم الكسيرة بأمانيهم المكبوتة . تلقيت عشرات الرسائل الخفية الضارعة بمجرد هذا الشر أو ذاك ، وتحقيق هذه الرغبة أو تلك ، وتأديب هذا الرجل أو قتل ذاك . ووجدتنى مثقلا بالآمال والأمانى والتبعات فاستحالت القوة إلى عبء تنوء به الجبال . وتسلل إلى خاطر لا أدرى من أين جاء بأن هذه القوة الخارقة لن تدوم إلا ما دام السائل فى جوفى . وعلى ذلك تركز تفكيرى فى استغلالها لدعم سعادتى

الشخصية . وألقيت العبء عن كاهلى وانحصرت فى هدف محدد واضح . ولكن ما كاد يزايلنى القلق حتى ترامى إلىّ وقع أقدام ثقيلة تطاردنى . وهزئت بالمطاردة والمطاردين وقلت لنفسى سيروننى فى اللحظة الحرجة وأنا أحلق كالنسر أو أختفى كالوهم . واقتربت منى الأقدام والأصوات الغاضبة فأمرت جسدى بالاختفاء عن الأعين . وحدثت معجزة ولكن مضادة . لم يصدع جسدى بأمرى وتطايرت قوتى فى الجو فوقعت بين يدى المطاردين بلا حول . ولم يعد لى من أمل إلا فى صحوة رحيمة تعقب كابوسا مخيفا ..

الحلم رقم ١٧

رأيت فيما يرى النائم ..

أننى جالس تحت مظلة سوداء ، أتسلى بمشاهدة صندوق الدنيا . وتتابعت المشاهد أمام عينى المبهورتين بدءا بالإنسان البدائى ، مرورا بالحضارات القديمة والمتوسطة والحديثة حتى صعود الإنسان إلى القمر ، ثم وجدتنى فى مسكنى فريسة لرغبة جامحة هى أن أصعد إلى القمر ، وكنت أجلس وسط متاع غزير ، تراكم فوق بعضه البعض حتى غطى الجدران وسد النوافذ ، وكان جسمى نفسه مثقلا بالأوسمة والهدايا الثمينة حتى تعذرت على الحركة وأخذت أغوص فى الأرض . وعلمت بطريقة ما أننى أنتظر زائرا هاما فحرت كيف أستقبله ، وأين أجلسه ، وخفت سوء العاقبة . وضاق صدرى بفساد الجو والزمن فتمردت على حرصى وأقبلت أنزع الأوسمة والهدايا من أركان جسدى ، وأركل المتاع يمنة ويسرة حتى شققت لنفسى طريقا إلى الخارج . وتنفست بعمق فأذهلتنى خفة وزنى . ولاح الزائر قادما عند الأفق ولكننى لم أستطع انتظاره إذ مضيت أترجح وأرتفع عن الأرض على مهل وثبات . أدركت أنى أحلق فى الفضاء وأنى كلما ارتفعت مترا ازددت سرعة . وغمرنى الشعور بالانعتاق ووعدنى بمسرات تعجز عن وصفها الكلمات .

« تمت »

رقم الإيداع : ٢٠١٣

الترقيم الدولى : ٤ ــ ٥٢٦ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه